

نهج التائبين

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق - وزارة الثقافة العراقية لسنة ٢٠٢٢ - ٣١٤٣

الحيدري، رائد جاسم محمد، ١٩٧٤-، مؤلف.

نهج التائبين / الشيخ رائد الحيدري. - الطبعة الأولى. - كربلاء، العراق: العتبة الحسينية المقدسة، قسم الشؤون الفكرية والثقافية، شعبة الدراسات والبحوث الإسلامية، ٢٠٢٢ / ١٤٤٣ للهجرة.

١٢٠ صفحة؛ ٢٤ سم. - (العتبة الحسينية المقدسة؛ ١٠٦٧)، (قسم الشؤون الفكرية والثقافية؛ ٣٠٥)، (شعبة الدراسات والبحوث الإسلامية؛ ٢٢٧).

يتضمن إرجاعات ببليوغرافية.

١. الغناء (فقه جعفري). ٢. الغناء - جوانب اجتماعية. ٣. الغناء - تأثير. أ. العنوان.

KBP3171.H33 2022

تمت الفهرسة قبل النشر في شعبة نظم المعلومات التابعة لقسم الشؤون الفكرية والثقافية

في العتبة الحسينية المقدسة

نهج التائبين

الشيخ رائد الحيدري

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ / ٢٠٢٢م

هوية الكتاب

عنوان الكتاب: نهج التائبين.

المؤلف: الشيخ رائد الحيدري.

الناشر: شعبة الدراسات والبحوث الإسلامية / قسم الشؤون الفكرية والثقافية/ العتبة الحسينية المقدسة.

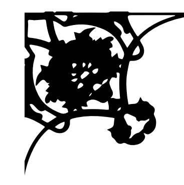
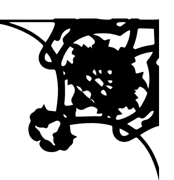
مكان النشر: العراق، كربلاء.

المطبعة: دار الوارث.



العراق: كربلاء المقدسة
العتبة الحسينية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية

الهاتف: ٣٢٦٤٩٩ ٣٢ ٠٠٩٦٤
٧٤٣٥٠٠٠٢٤٢ ٠٠٩٦٤
www.imamhussain-lib.com
E-mail:info@imamhussain-lib.com

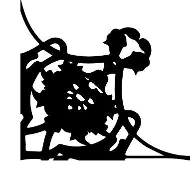
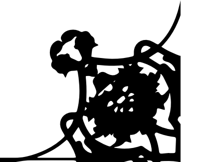
الإهداء

إلى مولاي أبي عبد الله الحسين عليه السلام

إلى سيدتي ومولاتي المظلومة رقية بنت الحسين عليهما السلام

إلى زوار الإمام الحسين عليه السلام في كل العوالم

أهدي هذه الوريقات

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين أبي القاسم محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين... وبعد

خلق الله تعالى الخلق لطاعته وعبادته ونهاهم عن معصيته ومخالفته، وأمرهم بالتوبة إذا ارتكبوا معصية أو ذنباً، ووعد التائبين قبول توبتهم والتكفير عن سيئاتهم وإبدالها حسنات كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[1].

فعلى الإنسان ألا يقنط من رحمة الله تعالى، ويعلم أن الله (جل وعلا) قادر على أن يجازيه الجزاء الأوفى.

والتوبة هي باب الله الآمن الذي فتحه الله تعالى إلى ساحة عفوه وكرمه والتوبة دعوة ربانية وكرامة إلهية لكل مذنب وعاصي، فما علينا

(١) سورة آل عمران: ١٣٥-١٣٦.

إلا أن نطهر أنفسنا من الخطايا والذنوب بنية خالصة ورغبة صادقة، فبابه مفتوح لعباده المذنبين. كما في الدعاء عن الإمام السجاد عليه السلام: «**إلهي أنت الذي فتحت لعبادك بابا إلى عفوك سميته التوبة**»[١].

فمن عظيم نعم الله علينا أن شرع لنا باب التوبة، وضمن لنا القبول والإجابة إن بادرنا إلى الدخول في جملة عباده التائبين، ومن وفقه الله للتوبة فليعلم أن الله قد أحبه لأن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. يقول تعالى: ﴿...إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٢].

وفي الحديث الشريف عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله: «**مثل المؤمن عند الله عز وجل كمثل ملك مقرب، وإن المؤمن عند الله عز وجل أعظم من ذلك، وليس شيء أحب إلى الله من مؤمن تائب، أو مؤمنة تائبة**»[٣].

وورد عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**إذا تاب العبد توبة نصوحا أحبه الله فستر عليه**»، فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: «**ينسي ملكيه ما كانا يكتبان عليه ويوحي [الله] إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه فيلقى الله عز وجل**

(١) الصحيفة السجادية: مناجاة التائبين: ص٢٢٢.

(٢)سورة البقرة: ٢٢٢.

(٣) بحار الأنوار، المجلسي: ج٦، ص٢١.

حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب»[١].

فالتوبة الصادقة هي التي تصرف صاحبها وتخلصه من الرجوع إلى الذنب، ويمكن تحقيق ذلك من خلال الاستعانة بالله تعالى على ذلك واتباع النهج الديني التربوي.

وللتوبة الصادقة آثار عظيمة في حياة الإنسان وآخرته فإضافة إلى أنها سبب لمحبة الله تعالى لعبده، فهي سبب لمحو السيئات وإبدالها بالحسنات ونيل رضا الله تعالى وغفران الذنوب.

وقد أوضح تعالى لعباده معيار الهداية الإلهية وشرائطها للجميع ليستطيعوا التوجه إليه والوصول إلى بحر رحمته ويدخلوا في جملة من أحبهم الله تعالى، فما علينا إلا نعجل ما دامت الفرصة سانحة لنتوب إلى الله تعالى سيما إن كان المرء في عمر الشباب.

يقول عليه السلام: «**إِلهِي إِنْ كانَ قَلَّ زادِي فِي المَسِيرِ إِلَيْكَ، فَلَقَدْ حَسُنَ ظَنِّي بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ جُرْمِي قَدْ أَخافَنِي مِنْ عُقُوبَتِكَ، فَإِنَّ رَجآئِي قَدْ أَشْعَرَنِي بِالأَمْنِ مِنْ نِقْمَتِكَ**»[٢].

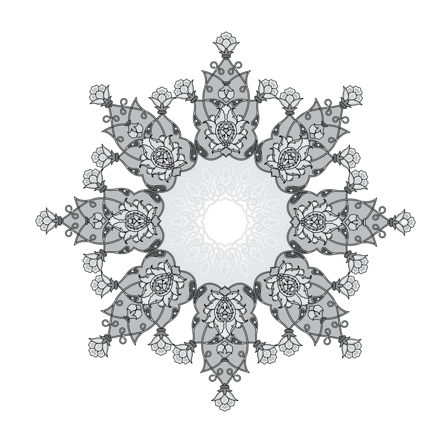
وهنا حاولنا أن نبين أهمية التوبة وحقيقتها ووجوبها ومراتبها

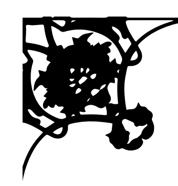
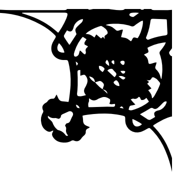
(١) الكافي، الكليني: ج٢، ص٤٣٦.

(٢) الصحيفة السجادية: ص٢٨٨.

وكيفيتها، مما يستدعي بيان أقسام الذنوب وبيان أجناس الكبائر، وشرائط قبول التوبة وغيرها العديد من أمهات المطالب وتجنبنا ذكر الفضول منها.

سائلين المولى تبارك وتعالى أن يتقبل منا هذا القليل، وأن ينفع به المؤمنين ويكون ذخرا لنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.



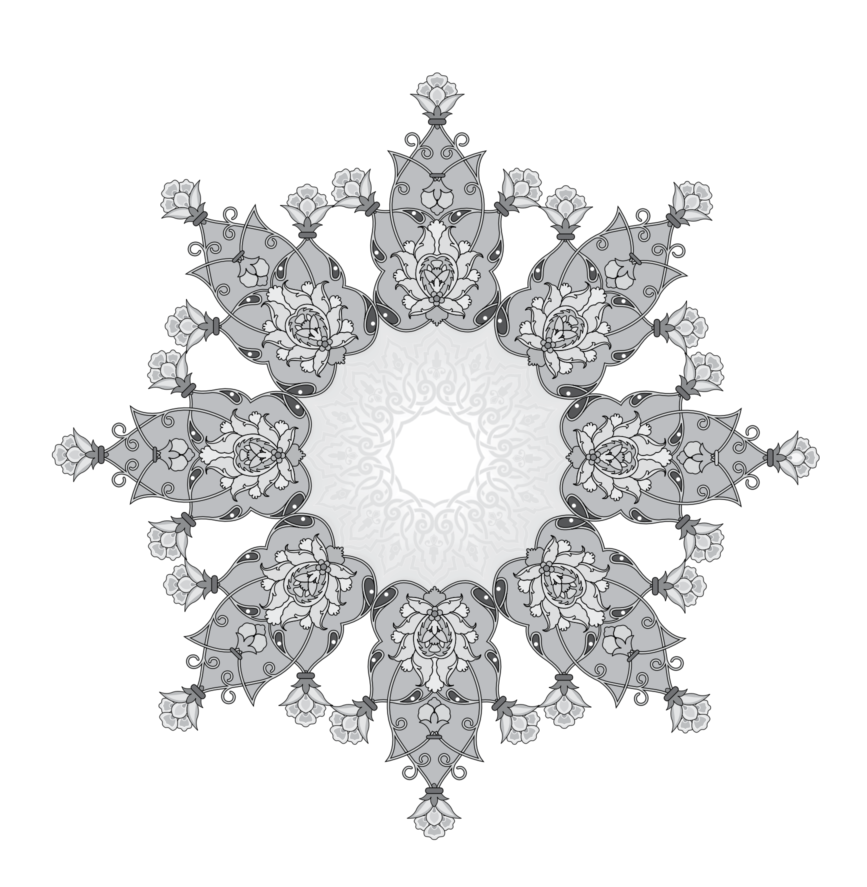
الفصل الأول

التوبة (حقيقتها - وجوبها - شروطها - آثارها)

المبحث الأول: حقيقة التوبة ووجوبها

المبحث الثاني: شروط التوبة وآثارها





المبحث الأول: حقيقة التوبة ووجوبها

المطلب الأول: حقيقة التوبة

التوبة عبارة عن أمور ثلاثة مترتبة الأول منها يقتضي الثاني وهو يقتضي الثالث، وهذه الأمور هي العلم والندم والإرادة المستتبعة للعمل، أما العلم فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها هي التي تمنع الإنسان من الوصول إلى ما يحبه سواء كان هذا المحبوب دنيوياً أو أخروياً، فإذا عرف الإنسان ذلك معرفة حقيقية بيقين غالب على قلبه، حصل ألم في النفس بسبب فوات المحبوب فإن القلب متى شعر بفوات محبوبه تألم، خصوصا إذا كان الفوات بسببه هو، ويسمى تألمه بسبب فعله الذي فوت محبوبه ندما، فإذا غلب هذا الندم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً بأن يترك الذنب الذي كان يذنبه وبسببه فات المحبوب، وأن يعزم على عدم العودة إليه مستقبلًا بأن يعزم على ترك الذنب إلى آخر العمر، وأن يتلافى آثار الذنب من تبعات مالية أو قضاء عبادات وما شاكل مما ستتعرف عليه قريبا إن شاء الله تعالى.

فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الخيرات، والمراد من العلم الإيمان واليقين فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة، واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب، فيثمر نور هذا الإيمان مهما اشرق على القلب نار الندم فيتألم به القلب حيث يدرك أنه صار محجوبًا عن محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب فرأى محبوبه وهو لا يقدر على الوصول إليه، فتشتعل نيران الندم في قلبه فتنبعث من تلك النيران إرادة لتدارك ما فاته، علّه يحصل على مطلوبة.

فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك ثلاثة معان مترتبة في الحصول يطلق اسم التوبة على مجموعها، وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كمقدمة له وترك الذنوب كالثمرة والنتيجة، وبهذا الاعتبار قال ﷺ: «**الندم توبة**»[1]. إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وكان هو السبب له وعزم يثمره وينتجه.

فيكون الندم محفوفًا بطرفيه أعني العلم والإرادة المستتبعة لترك الذنوب.

(١) بحار الأنوار، المجلسي: ج٧٤، ص١٥٩.

المطلب الثاني: وجوب التوبة وفضلها

يدل على وجوب التوبة وفضلها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] ومعنى النصوح الخالص لله.

وقوله تعالى أيضا: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2]، وهو أمر منه تعالى للمؤمنين كافة، ومن المعلوم أن الأمر مفاده الوجوب فيجب عليهم جميعًا التوبة، وقد جعل تعالى نتيجة التوبة الفلاح. وكذلك قوله عز من قائل: ﴿...إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[3].

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «**إن الله أشد فرحا بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها فالله تعالى أشد**

---

(١) سورة التحريم: ٨.

(٢) سورة النور: ٣١.

(٣) سورة البقرة: ٢٢٢.

فرحا بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها»[١].

وعن الصادق عليه السلام: «**إن الله يفرح بتوبة عبده المؤمن إذا تاب كما يفرح أحدكم بضالته إذا وجدها»**[٢].

وعنه عليه السلام في قوله تعالى: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ قال: «**هو الذنب الذي لا يعود فيه أبدا. قيل: وأينا لم يعد؟ قال: يا فلان إن الله يحب من عباده المفتن التواب»**[٣].

وفي رواية أخرى: «**ومن لا يكون ذلك منه كان أفضل»**[٤].

وعنه عليه السلام: «**إذا تاب العبد توبة نصوحًا أحبه الله فستر عليه**»، قيل: وكيف يستر عليه؟ قال: «**ينسي ملكيه ما كانا يكتبان عليه ويوحي الله إلى جوارحه، وإلى بقاع الأرض أن أكتمي عليه ذنوبه فيلقى الله تعالى حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب»**[٥].

---

(١) الكافي، الكليني: ج٢، ص٤٣٥-٤٣٦، تحت رقم٨.

(٢) المصدر نفسه، تحت رقم ١٣.

(٣) الكافي، الكليني: ج٢، ص٤٣٢، تحت رقم ٤.

(٤) المصدر نفسه: ص٤٣٥، تحت الرقم٩.

(٥) المصدر نفسه: ص٤٣٦، تحت الرقم ١٢.

وعن الباقر عليه السلام قال: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمقيم على الذنب وهو يستغفر منه كالمستهزئ**»[(١)].

وقد انعقد إجماع الأمة بجميع طوائفها ومذاهبها على وجوب التوبة ولم يذكر فيه خلاف.

كما إن العقل حاكم بحسنها وقبح تركها فهذه الأدلة الأربعة من كتاب وسنّة وإجماع وعقل قائمة على فضلها ووجوبها مما لا يدع مجالا للشك فيهما.

لكن قد يقال: إن التوبة هي الندم أو على الأقل إن الندم هو جزء مهم من مركب اسمه التوبة وهو لا يدخل تحت اختيار الإنسان فهو من الأمور القلبية فكيف يكلّف الله تعالى الإنسان بالندم وهو ليس باختياره، أليس هو كقول القائل حب فلان أو أبغض فلان مع إن الحب والبغض لا يقعان تحت اختيار الإنسان؟

والجواب: تقدم أن سبب حصول الندم هو العلم السابق بأن الذنوب هي سبب حرمان الإنسان مما يحبه ويطلبه، وتحصيل العلم داخل تحت اختيار الإنسان، فالتكليف به جائز، فإذا حصل العلم اشتعلت نار الندم في قلب الإنسان، ليتحقق بذلك ما يكفي من الندم الباعث نحو التوبة.

---

(١) المصدر نفسه، تحت الرقم ١٣.

ومن جملة ما استدل به على وجوب التوبة:

أولًا: إنها دافعة للضرر الذي هو العقاب، ودفع الضرر الأخروي واجب عقلا.

ثانيًا: إن العزم على ارتكاب القبائح وترك الفرائض قبيح عقلًا، فيجب اجتنابه، وهو لا يحصل إلا بالتوبة.

المطلب الثالث: وجوب التوبة فوري

لا ريب في أن وجوب التوبة هو على الفور، لما تقدم من إن أول أجزاء التوبة هو العلم والاعتقاد أن المعاصي مهلكات، ومعرفة أن المعاصي مهلكات من نفس الإيمان، وهذا العلم هو نفس الإيمان، والإيمان واجب على الفور، فتكون التوبة واجبة على الفور.

ويحكم العقل بوجوب التوبة فورًا، لأنها اجتناب عن القبيح بقاء وترك للعدوان استدامة، ومثل ذلك لا يصح فيه التأخير والتراخي، أضف إلى ذلك إن العقل يحرض على التوبة فورًا لئلا يفوت أوانها ويكون ممن لا تقبل توبته ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ

كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[١].

المطلب الرابع: تارك التوبة ناقص الإيمان

كل علم يراد منه أن يكون باعثًا نحو عمل ما، لا تكون له فائدة إلا إذا أنتج ذلك العمل، فالعلم بضرر الذنوب - الذي هو أول أجزاء التوبة - إنما أريد ليكون باعثًا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لقدر من الإيمان، لما ورد من قوله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[٢]، وما أراد النبي ﷺ نفي الإيمان الذي هو الاعتقاد بالوحدانية والرسالة، فإن ذلك لا ينافي الزنا والمعاصي، فيجتمع العصيان مع الاعتقاد بهذه الأمور، وإنما أراد به نفي الإيمان بكون الزنا مبعدًا عن الله وموجبًا للمقت كما إذا قال الطبيب: هذا سم فلا تتناوله،، فإذا تناوله الإنسان يقال تناوله وهو غير مؤمن ولا مصدق بقول الطبيب، لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيبًا بل المراد أنه غير مصدق بقوله انه سم مهلك، فإنّ العالم بالسم لا يتناوله أصلًا، فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٨.

(٢) بحار الأنوار، المجلسي: ج٦٨، ص٣٠٨.

فإن للإيمان مراتب كما ورد في أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام(١).

كالذي رواه عبد العزيز القراطيسي قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «**يا عبد العزيز إن الإيمان عشر درجات بمنزلة السلَّم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة فلا يقولنَّ صاحب الاثنين لصاحب الواحد لست على شيء حتى ينتهي إلى العاشر**»(٢).

وكذلك ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**الإسلام درجة والإيمان عن الإسلام درجة. واليقين على الإيمان درجة. وما أوتي الناس أقل من اليقين**»(٣).

وعن أبي عمرو الزبيدي (عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «... **الإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهي تمامه، ومنه الناقص البيّن نقصانه، ومنه الراجح الزائد رجحانه**»، قلت: إنَّ الإيمان ليتم وينقص ويزيد؟ قال عليه السلام: «**نعم...**»، قلت:... فمن أين جاءت زيادته؟ فقال عليه السلام: «**قول الله عزَّ وجلَّ**: ﴿وَإِذَا مَا

(١) راجع تفسير الميزان ١٨: ٢٥٩

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٤٥، ح٢، كتاب الإيمان والكفر، باب آخر من درجات الإيمان.

(٣) تحف العقول: ٣٥٨.

أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ...﴾[1]. وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[2]. ولو كان واحدًا لا زيادة فيه ولا نقصان لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر ولاستوت النعم فيه ولاستوى الناس وبطل التفضيل، ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة، وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله وبالنقصان دخل المفرّطون النار)[3].

ثم إن صاحب الإيمان الضعيف قريب من أنْ تنقلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت وروده، فكل إيمان لم يثبت في النفس أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة إلا ما سُقي بماء الطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت.

وقول العاصي للمطيع: إنّي مؤمن كما إنك مؤمن كقول شجرة القرع

(١) سورة التوبة: ١٢٤-١٢٥.

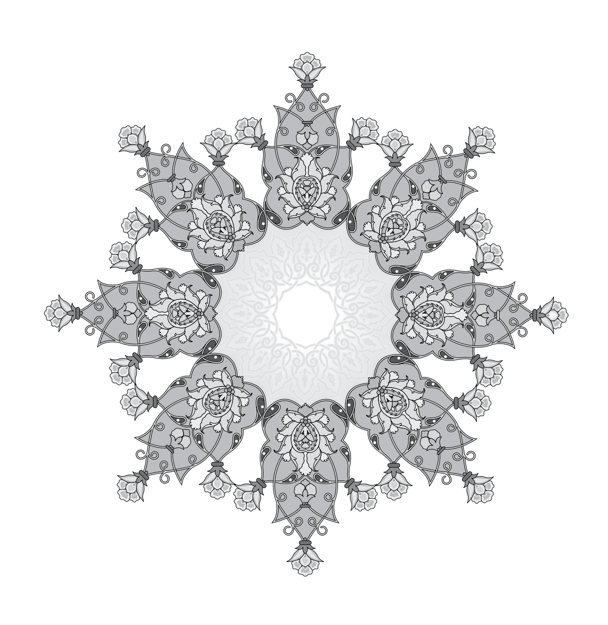
(٢) سورة الكهف: ١٣.

(٣) أصول الكافي، الكليني: ج٢، ص٣٣، ١/ ٣٧، كتاب الإيمان والكفر.

لشجرة الصنوبر: أنا شجرة وأنت شجرة. وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت: ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف فعند ذلك تنقلع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار.

وسوف ترى إذا انجلى الغبار أفـــرس تحـتـك أو حـمـار

فهذا أمر الغفلة يظهر عند الخاتمة.



المبحث الثاني: شروط التوبة وآثارها

المطلب الأول: وجوب التوبة عام لا ينفك عنه أحد

قد دلّ القرآن الكريم على شمول وجوب التوبة للناس كافة وفي سائر الأحوال، كقوله تعالى: ﴿ ...وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١]، فعمّم الخطاب للمؤمنين كافة، وكما إنّ النّظر البسيط يقتضي الحكم بذلك، إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله تعالى والمقرب من الشيطان.

توضيح ذلك:

إن غريزة العقل في الإنسان لا تكتمل فيه إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان فقد ذكر علماء الأخلاق إن كمال العقل لا يكون الا عند مقاربة الأربعين وأصله يكون عند مراهقة البلوغ ومباديه - أي العقل - تظهر بعد سبع سنين، والشهوات جنود الشيطان والعقول جنود الملائكة، وإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة، إذ لا يمكن

(١) سورة النور: ٣١.

أن يجتمعا، فالتطارد بينهما كتطارد الليل والنهار والنور والظلمة، وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان ووقع للقلب انس وألفة لما تقتضيه قوة الشهوة وغلب ذلك عليه وتعسر عليه تركها، ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من ايدي أعدائه شيئا فشيئا على التدريج، فإن لم يقو ولم يكتمل سلمت مملكة القلب إلى الشيطان وأنجز اللعين وعده حين قال للحق تبارك وتعالى: ﴿ ...لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً ﴾[1]، وإن قوي العقل وكمل كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات بواسطة العبادات ولا معنى للتوبة إلا هذا وهو الرجوع عن طريق الشهوة إلى طريق الله تعالى.

إذن أكثر الناس تكون شهوته سابقه على عقله وغريزته التي هي عدة للشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة للملائكة فكان الرجوع عما يساعد على الشهوات ضرورية في حق كل إنسان فإذن كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من كفره وجهله، فإن بلغ مسلما تبعا لأبويه غافلا عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفلته بفهم معنى الإسلام، فإن لم تكن التوبة للغافل عن حقيقة الإسلام واجبة فهي مما ندب إليه الشارع المقدس، فإنه لا يغني عنه إسلام أبويه شيئا ما لم يسلم بنفسه، فإن فهم

(١) سورة الإسراء: ٦٢.

ذلك فعليه الرجوع عن عادته وعن الاسترسال وراء الشهوات من غير صارف والانكفاف بحفظ حدود الله تعالى وهو من أشق أبواب التوبة.

وأما وجوب التوبة على الدوام وفي كل حال فدليله: أن كل إنسان غير معصوم لا يخلو عن معصية بجوارحه فأن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنب بالقلب، فإن خلا عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة التي تذهله وتشغله عن ذكر الله، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة.

وقصور في العلم بالله وصفاته وآثاره، وكل ذلك نقص وله أسباب وترك هذه الأسباب هو في الحقيقة رجوع وتوبة منها.

قد يقال: هذا حال غير المعصومين فما حال المعصوم؟

وهنا ينبغي التنبيه على إن استغفار الأنبياء والأوصياء عليهم السلام ليس لذنب ارتكبوه بل إنما هو لزيادة الأجر والاعتراف بتقصيرهم في حق الله تعالى.

روى في الكافي بسند حسن عن علي بن رئاب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾[1]، أرأيت ما أصاب علي عليه السلام وأهل بيته من بعده أهو بما كسبت أيديهم وهم أهل بيت طهارة معصومون؟

(١) سورة الشورى: ٣٠.

فقال: «**إن رسول الله ﷺ كان يتوب إلى الله ويستغفره في كل يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب إن الله يخص اولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب**»(١).

وبإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٢)، فقال: «**يا أبا محمد تسلطه والله من المؤمن على بدنه ولا يسلط على دينه وقد سلط على أيوب فشوه خلقه ولم يسلط على دينه وقد يسلط من المؤمنين على أبدانهم ولا يسلط على دينهم**»(٣).

قد يقال: إنّ الإنسان إذا حصل ملكة العدالة وكان مستقيما على جادة الشريعة بأن يفعل كل الواجبات ويترك جميع المحرمات فلا يجب عليه تحصيل الدرجات العليا من الكمال والتي هي أعلى من درجة العدالة المعتبرة في الفقه، وعليه فلا يجب على هذا المكلف أن يتوب من المرتبة السابقة؟

(١) الكافي، الكليني: ج٢، ص٤٥٠، تحت رقم ٢.

(٢) سورة الشورى: ٩٨-٩٩.

(٣) الكافي، الكليني: ج٨، (كتاب الروضة)، ص٢٨٨.

الجواب: إن المراد من الوجوب أحد معنيين:

الأول: بمعنى الإلزام الشرعي الذي هو أحد الأحكام التكليفية الخمسة وهو المستعمل في الفقه.

الثاني: بمعنى ما كان مقدمة للمطلوب.

وبعبارة أخرى؛ إن الإنسان إذا أراد شيئا وهذا الشيء له مقدمات فلابد من تحصيل هذه المقدمات، فمثلا الصلاة المندوبة ليست واجبة على المكلف، إلا إننا نقول: إذا أردت هذه الصلاة فيجب عليك أن تتوضأ، فالوجوب هنا ليس بمعنى الإلزام الشرعي، وإنما هو بمعنى أن الصلاة المندوبة التي أرادها المكلف لا تتم إلا بالوضوء فهو مقدمة لها.

وهنا نقول وجوب التوبة المذكور هو بهذا المعنى، فإذا أراد الإنسان أن يصل إلى الدرجات العليا من الكمال فلابد له من التوبة، لأنها مقدمة لها.

فالعدالة المعتبرة في الفقه توجب أصل النجاة، لكن ما وراء هذا الأصل من السعادات، فلا تُنال إلا بالتوبة مما كان عليه.

ولهذا سعى الأنبياء والأولياء والعلماء، وعليه كان حرصهم وحواليه كان تطوافهم، ولأجله كان رفضهم لملاذ الدنيا حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى توسد الحجر في منامه فجاء إليه الشيطان وقال: أما كنت تركت

الدنيا للآخرة؟ فقال عليه السلام: نعم، وما الذي حدث؟ فقال: توسدك لهذا الحجر تنعم بالدنيا فلم لا تضع رأسك على الأرض، فرمى عيسى بالحجر ووضع رأسه على الأرض(١).

وكان رميه الحجر توبة عن ذلك التنعم، افترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أنّ وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجبًا في الفقه! فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبالطريق إلى الله.

فمن التفت إلى هذه النكتة علم أن لزوم التوبة النصوح لازم للعبد مهما وصل به الكمال ولو عمر عمر نوح عليه السلام وأن ذلك واجب عليه من غير مهلة.

ولقد صدق من قال: لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على فوت ما مضى منه في غير طاعة الله لكان خليقًا أن يحزنه ذلك إلى الممات فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله.

وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليه لا محالة وإن ضاعت منه وصار ضياعه سبب هلاكه كان بكاؤه منه أشد، وكل ساعة من العمر بل كل نفس نتنفّسه جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها، فإنها قادرة على أن توصلك إلى سعادة

(١) المحجة البيضاء، للفيض الكاشاني: ج٧، ص٢٩.

الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد وأي جوهرة أنفس من هذا، فإذا ضيعناها في الغفلة فقد خسرنا خسرانًا مبينًا وإن صرفناها إلى معصية فقد هلكنا هلاكا فاحشة، فإن كنا لا نبكي لهذه المصيبة فذلك لجهلنا، ومصيبتنا بجهلنا أعظم من كل مصيبة، لكن الجهل مصيبة لا يعلم صاحبها أنه صاحب مصيبة فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته «**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**»[١]، فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ولكل مصاب مصيبته، وقد وقع اليأس عن التدارك.

قال بعض العارفين: إن ملك الموت إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقي من عمرك ساعة وأنك لا تستأخر عنها طرفة عين فيبدو للعبد من الحزن والأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليتدارك تفريطه فلا يجد إليها سبيلا وهو أول ما يظهر من معاني قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ...﴾[٢].

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿...مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ *

(١) مستدرك الوسائل: ج٢، ص٢٦٥.

(٢) سورة سبأ: ٥٤.

وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[١].

فقيل الأجل القريب الذي يطلبه معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد: يا ملك الموت أخرني يوما أعتذر فيه إلى ربي وأتوب وأتزوّد صالحا لنفسي، فيقول: فنيت الأيام فلا يوم، فيقول: أخرني ساعة فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة، فيغلق عليه باب التوبة فيغرغر بروحه وتتردد أنفاسه في شراسيفه ويتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأحوال فإذا زهقت نفسه فإن كانت سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد وذلك حسن الخاتمة، وإن سبق له القضاء بالشقوة - والعياذ بالله - خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة.

ولمثل هذا قال تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ﴾[٢]، بل التوبة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾[٣]، ومعناه عن قريب من وقت الخطيئة بأن يتندم عليها ويمحو آثارها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا

---

(١) سورة المنافقون: ١٠-١١.

(٢) سورة النساء: ١٨.

(٣) سورة النساء: ١٧.

يقبل المحو، ولذلك قال ﷺ: «**أتبع السيئة الحسنة تمحها**»[(١)].

وقال لقمان لابنه: يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة، ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو.

والثاني أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو، ولذلك ورد في الخبر «**إن أكثر صياح أهل النار من التسويف**»[(٢)].

فما هلك من هلك إلا بالتسويف فيأتي الله بقلب غير سليم فالقلب والعمر أمانتان لله عند العبد فمن خان الأمانة ولم يتدارك خيانته فهو على خطر.

قال بعض العارفين: إن الله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام أحدهما إذا خرج من بطن أمه يقول له: عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرًا نظيفًا واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الأمانة، وانظر كيف تلقاني.

والثاني عند خروج روحه يقول: عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٣٩٣.

(٢) المحجة البيضاء: ج٧، ص٣٤.

هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب.

واليه الاشارة بقوله تعالى: ﴿...وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ...﴾[1]، وبقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[2].

المطلب الثاني: شروط التوبة النصوح

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾[4].

على العبد أن يحسن الظن بالله تعالى ويعلم أنه غفور رحيم فيرجع إليه طالبًا العفو والصفح «**فمن تاب تاب الله عليه**»[5]، وعليه أن يتيقن أن الله تعالى قادر على مغفرة الذنوب للذين يتوبون بصدق وإخلاص، وقد

---

(١) سورة البقرة: ٤٠.

(٢) سورة المؤمنون: ٨.

(٣) سورة الزمر: ٥٣.

(٤) سورة التحريم: ٨.

(٥) جامع الاخبار: ج٩، ص٤.

ورد في الروايات الشريفة أن الله تعالى يبدل سيئات التائب حسنات.

والمسلم العاقل هو الذي يُقَوِّمُ نفسه ويأخذ بزمامها إلى ما فيه مرضاة الله تعالى، ويمنع نفسه من الجنوح إلى الوقوع في المعاصي والانغماس في الشهوات المحرمة.

وباب الله مفتوح للطالبين والطرق إليه بعدد أنفاس الخلائق، وأبواب مغفرته للتائبين مشرعة، ولا مفر منه إلا إليه فمن أراد النجاة والفوز في الدنيا والآخرة، عليه أن يجعل الله تعالى نصب عينيه، ويتوجه إليه طالبًا مرضاته وللتوبة النصوح شروط ومقدمات نذكرها على الإجمال وسيأتيك تفصيلها عن قريب فانتظر:

١- أن يترك الذنب ويقلع عنه بنية صادقة وقلب سليم.

٢- الندم على ارتكاب الذنب وما صدر من سيئات.

٣- العزم على عدم العودة للذنب.

٤- أن يكثر الاستغفار وأن يجعل نفسه بين الخوف والرجاء.

٥- أن يهجر أصدقاء السوء بلا رجعة، وليغيرن حتى الملابس التي كان يرتديها أيام معصيته.

٦- إذا كانت المعصية متعلقة بحقوق الآخرين كأكل مال اليتيم ظلمًا وعدوانًا أو الاعتداء عليهم بالضرب ونحوه، فلا بد من الخروج من

هذه المظالم ونحوها وردها إلى أهلها واسترضاء المعتدى عليه.

٧- إتلاف المحرمات الموجودة عند الإنسان كالات اللهو والفساد أو حجبها واستعمالها بما هو جائز: كما في الأجهزة المرئية ونحوها، فيمتنع عن مشاهدة الأفلام الخليعة واستماع الأغاني ونحو ذلك.

٨- أن تعمد إلى البدن الذي نبت لحمه من الحرام، فتذيبه في طاعة الله تعالى، لكي ينبت لحمًا طيبًا.

٩- وقوع التوبة قبل بلوغ الروح إلى الحلقوم، قال تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[1].

١٠- أن تذيق البدن ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية.

ومن هنا وبعد الالتزام بالشروط المذكورة تتحقق التوبة النصوح، وهي نقطة البداية للتحرك إلى الله تعالى.

وما أجمل أن يكون المرء قريبًا من ربه بعد أن كان بعيدًا منه، فيتذوّق طعم القرب والمناجاة، بعد أن ذاق مرارة البعد والجفاء، فيجيب داعي الله مسارعًا إلى الدخول في عداد الصالحين، ملبيًا نداء الحق تعالى: ﴿ يا

(١) سورة النساء: ١٨.

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾[١].

ومن تمام التوبة التوجه إلى الله تعالى بقلب سليم، والإقبال على الأعمال الصالحة والابتعاد عن الأعمال المحرمة، وكل ما له صلة بالمعاصي والخطايا، وأن يختار الرفقاء الصالحين ومجالس الوعظ وتعلم الأحكام الشرعية، لاسيما الابتلائية منها والالتزام بأدائها.

قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾[٢].

وورد في الدعاء عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**إلهي أنت الذي فتحت لعبادك بابا إلى عفوك سميته التوبة، فقلت:** ﴿ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾، **فما عذر من أغفل دخول الباب بعد فتحه**».

المطلب الثالث: آثار التوبة النصوح

من المعلوم أن العبودية مراتب ودرجات، ولعل أبرز درجات الرقي والكمال في مجال العبودية التوبة، فهي من أبرز مصادق العبودية

(١) سورة التحريم: ٨.

(٢) سورة الفرقان: ٧٠.

والرجوع إليه تعالى بعد فراق وغياب.

والتوبة هي خروج من غياهب الجهل إلى مدار العلم، ومن لجج الظلمات إلى عالم النور، ومن منزل الشيطان إلى ساحة الرحمن، ومن رق عبودية الهوى إلى إخلاص الدين لله تعالى، ومن بحور الذنوب والمعاصي إلى منازل الكرامة والتقى، ومن العماية إلى الهداية، ومن الضلال إلى الرشد ومن الجنون إلى عالم العقل والحكمة والرشد، ومن العلل والسقم إلى الشفاء والراحة، ومن الألم إلى الارتياح ومن الجزع إلى الصبر ومن التجبر والتكبر إلى الخضوع والتذلل بين يديه تعالى. وفي هذا الميدان الفسيح يطل علينا أمير المؤمنين عليه السلام لينقلنا إلى عالم الهداية والورع بقوله المبارك من خطبة كريمة له فيقول عليه السلام: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَا شَرَفَ أَعْلَى مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَا كَرَمَ أَعَزُّ مِنَ التَّقْوَى، وَلَا مَعْقِلَ أَحْرَزُ مِنَ الْوَرَعِ، وَلَا شَفِيعَ أَنْجَحُ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَا لِبَاسَ أَجْمَلُ مِنَ الْعَافِيَةِ، وَلَا وِقَايَةَ أَمْنَعُ مِنَ السَّلَامَةِ، وَلَا مَالَ أَذْهَبُ بِالْفَاقَةِ مِنَ الرِّضَا بِالْقَنَاعَةِ، وَلَا كَنْزَ أَغْنَى مِنَ الْقُنُوعِ، وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى بُلْغَةِ الْكَفَافِ فَقَدِ انْتَظَمَ الرَّاحَةَ وَتَبَوَّأَ خَفْضَ الدَّعَةِ، وَالرَّغْبَةُ مِفْتَاحُ التَّعَبِ، وَالِاحْتِكَارُ مَطِيَّةُ النَّصَبِ،**

وَالْحَسَدُ آفَةُ الدِّينِ، وَالْحِرْصُ دَاعٍ إِلَى التَّقَحُّمِ فِي الذُّنُوبِ...»[١].

فهلا اتعظنا بكلام الإمام (وهو إمام الكلام) واتبعنا النهج الذي خطه لنا وسار عليه الصالحون وجعلناه نصب أعيننا، فإن الله تعالى غفور رحيم ولكنه تعالى في نفس الوقت شديد العقاب.

غفور رحيم لعباده الذين يقرون بذنوبهم ويعترفون بخطاياهم ثم يتوبون إليه (عزّ اسمه)، ويعقبون توبتهم بالندم والعمل الصالح.

وشديد العقاب لمن تكبر على الله وطغى ثم أبى التوبة وأصر على ذنبه تمردًا وعصيانًا، ومن تمام نهج الأنبياء والمرسلين والأوصياء والصالحين من عباده عبادة الله بين الخوف والرجاء الخوف من عذابه وسخطه والرجاء لرحمته وثوابه.

قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾[٢].

ورد عن النبي الأكرم ﷺ قال: «**إن لله تعالى ملكا ينزل في كل ليلة فينادي: يا أبناء العشرين جدّوا واجتهدوا، ويا أبناء الثلاثين لا تغرنكم الحياة الدنيا، ويا أبناء الأربعين ماذا أعددتم للقاء**

---

(١) الكافي: ج٨، ص١٩، جزء من خطبة الوسيلة.

(٢) سورة السجدة: ١٦.

ربكم؟ ويا أبناء الخمسين أتاكم النذير، ويا أبنا الستين أنتم زرع آن حصاده، ويا أبناء السبعين نودي لكم فأجيبوا، ويا الثمانين أتتكم الساعة وأنتم غافلون، ثم يقول: لولا عباد ركع، ورجال خشع، وصبيان رضع، وأنعام رتع، لصب عليكم العذاب صبا»[١].

كم أهلكت الذنوب من الأمم والشعوب الماضية فهل بقيت لهم من باقية؟

قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾[٢].

إن أثر التوبة هو إزالة السيئات النفسانية التي تجر الإنسان إلى الشقاء في حياته الأولى والأخرى فيرجع التائب بعد ندمه وعزمه مع الترك في المستقبل أبيض السريرة كيوم ولدته أمه وبالتالي يسقط عنه العقاب.

وأما الأحكام الشرعية المترتبة على الأعمال السالفة فتبقى على حالها، إذ ليس للتوبة تأثير إلا في إصلاح النفس وإعدادها للسعادة الأخروية، ولذلك يجب الخروج عن مظالم العباد أولا وتدارك ما فات من الفرائض ثانية.

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١٢، ص١٥٧.

(٢) سورة الإسراء: ١٧.

فإن السيئة العارضة على النفس بسبب هضم حقوق الناس لا ترتفع إلا برضاهم، لأنه سبحانه احترم حقوقهم في أموالهم وأعراضهم ونفوسهم.

قال المفيدﷺ: إن من شرط التوبة إلى الله سبحانه من مظالم العباد الخروج إلى المظلومين من حقوقهم بأدائها إليهم أو باستحلالهم منها على طيبة النفس بذلك والاختيار له، فمن عدم منهم صاحب المظلمة وفقده خرج إلى أوليائه من ظلامته أو استحلهم منها على ما ذكرناه، ومن عدم الأولياء حقق العزم على الخروج إليهم متى وجدهم واستفرغ الوسع في ذلك بالطلب في حياته والوصية له بعد وفاته، ومن جهل أعيان المظلومين أو مواضعهم حقق العزم والنية في الخروج من الظلامة إليهم متى عرفهم وجهد وأجهد نفسه في التماسهم، فإذا خاف فوت ذلك بحضور أجله وصى به على ما قدمناه، ومن لم يجد طولا لرد المظالم سأل الناس الصلة له والمعونة على ما يمكنه من ردها أو آجر نفسه إن نفعه ذلك وكان طريقًا إلى استفادة ما يخرج به من المظالم إلى أهلها.

والجملة في هذا الباب أنه يجب على الظالمين استفراغ الجهد مع التوبة في الخروج من مظالم العباد، فإنه إذا علم الله ذلك منهم قبل توبتهم وعوض المظلومين عنهم إذا عجز التائبون عن رد ظلاماتهم، وإن قصر

التائبون من الظلم فيما ذكرناه كان أمرهم إلى الله عز وجل فإن شاء عاقبهم وإن شاء تفضل عليهم بالعفو والغفران، وعلى هذا إجماع أهل الصلاة من المتكلمين والفقهاء[١].

ولأجل ذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله عز وجل أملس ليس عليك تبعة، والرّابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها**»[٢].

والمتبادر من الآيات والروايات أن التوبة بنفسها مسقطة للعقاب بقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣].

ومن هنا يظهر لنا مقام التوبة وأثرها على الفرد والمجتمع وما تجره من آثار إيجابية في الدنيا والآخرة، والعبد المؤمن دائما وأبدًا يسعى لنيل رضا بارئه وتحصيل الطاعة والاعتراف والإقرار بذنوبه وخطاياه بين يدي رب العزة والجلال، وهذا من مقامات ومنازل العبودية لعباد الله الصالحين.

---

(١) أوائل المقالات في المذاهب والمختارات: ص٨٧.

(٢) بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة: الحكمة (٤١٧).

(٣) سورة الأنعام: ٥٤.

المطلب الرابع: التوبة الجامعة للشرائط مقبولة

خلق الله القلوب نقية فكل مولود يولد على الفطرة وإنما تحصل كدورة فيها من غبرة الذنوب وظلمتها ولا يحرق هذه الكدرة إلا نار الندم، فإن نور الحسنة يمحو من وجه القلب ظلمة السيئة، وأنه لا طاقة لظلمة المعاصي مع نور الحسنات، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار وكدورة الوسخ مع بياض الصابون، فكما إن الملك لا يقبل أن يلبس لباس وسخا، فكذلك القلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره، وكما إن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه، وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول، كما إن كل ثوب نظيف فهو مقبول فإنما علينا التزكية والتطهير.

فأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلي، فقد قال الحق تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾[1].

وهذا البيان كاف عند ذوي البصائر في قبول التوبة، ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار، فقد قال تعالى: ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ

(١) سورة الشمس: ٩.

وَقَابِلِ التَّوْبِ... ﴾[١]، وقال أيضا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾[٢]، إلى غير ذلك من آيات الكتاب العزيز.

وعن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**يا محمد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما والله انها ليست إلا لأهل الإيمان. قلت: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب وعاد في التوبة. فقال: يا محمد بن مسلم أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته؟ قلت: فإن فعل ذلك مرارة يذنب ثم يتوب ويستغفر؟ فقال: كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة، وإن الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، فإياك أن تقنط المؤمنين من رحمة الله**»[٣].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**العبد المؤمن إذا أذنب ذنبا أجله الله سبع ساعات فإن استغفر الله لم يكتب عليه شيء، وإن مضت**

(١) سورة غافر: ٣.

(٢) سورة الشورى: ٢٥.

(٣) الكافي: ج٢: ص٤٣٤ تحت رقم ٦.

الساعات ولم يستغفر كتبت عليه سيئة، وإن المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له، وإن الكافر لينساه من ساعته»[١]، وعنه عليه السلام قال: «**إنه والله ما خرج عبد من ذنب إلا بالإقرار»**[٢]، وعنه عليه السلام: «**من أذنب ذنبا فعلم أن الله مطلع عليه إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له، غفر له وأن لم يستغفر»**[٣].

وعن أبي عبد الله أو عن أبي جعفر عليهما السلام قال: «**إن آدم عليه السلام قال: يا رب سلطت علي الشيطان وأجريته مني مجرى الدم فاجعل لي شيئا، فقال: يا آدم جعلت لك أن من هم من ذريتك بسيئة لم تكتب عليه، فإن عملها كتبت عليه سيئة ومن هم منهم بحسنة فإن لم يعملها كتبت له حسنة فإن هو عملها كتبت له عشرا، قال: يا رب زدني، قال: جعلت لك أن من عمل منهم سيئة ثم استغفر له غفرت له، قال: يا رب زدني، قال: جعلت لهم التوبة أو قال: بسطت لهم التوبة**

---

(١) المصدر نفسه: ج٢، ص٤٣٧ تحت الرقم ٦.

(٢) المصدر نفسه: ج٢، ص٦٢٦ تحت الرقم ٤.

(٣) المصدر نفسه: ج٢، ص٦٢٧ رقم ٥.

حتى تبلغ النفس هذه، قال: يا رب حسبي»[(١)].

عن معاوية بن وهب قال: (خرجنا إلى مكة ومعنا شيخ متأله متعبد لا يعرف هذا الأمر يتم الصلاة في الطريق ومعه ابن أخ له، فمرض الشيخ فقلت لابن أخيه: لو عرضت هذا الأمر على عمك لعل الله أن يخلصه، فقال كلهم: دعوا الشيخ حتى يموت على حاله فإنه حسن الهيئة، فلم يصبر ابن أخيه حتى قال له: يا عم إن الناس ارتدوا بعد رسول الله ﷺ إلا نفرة يسيرة، وكان لعلي بن أبي طالب عليه السلام من الطاعة ما كان لرسول الله ﷺ وكان بعد رسول الله الحق والطاعة له، قال: فتنفس الشيخ وشهق وقال: أنا على هذا وخرجت نفسه.

فدخلنا على أبي عبد الله عليه السلام فعرض علي بن السري هذا الكلام على أبي عبد الله عليه السلام فقال: هو رجل من أهل الجنة، قال له علي بن السري: إنه لم يعرف شيئا من هذا غير ساعته تلك!؟ قال: فتريدون منه ماذا؟ قد دخل والله الجنة)[(٢)].

(١) المصدر نفسه: ج٢، ص٤٤٠ تحت رقم ١.

(٢) المصدر نفسه: ج ٢، ص٤٤.

المطلب الخامس: كيفية التوبة النصوح

ذكرنا آنفاً إن التوبة عبارة عن ندم يورث عزمة وقصدا وذلك الندم يورثه العلم بكون المعاصي تحول بينه وبين ما يحب، ولكل واحد من العلم والندم والعزم - التي تشكل الأركان الثلاثة للتوبة - كمال ولتمامها وكمالها علامة ولدوامها واستمرارها شروط فلابد من بيانها:

١) أما العلم فتمامه أن ينظر في سبب التوبة وسيأتي[١].

٢) وأما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدموع وطول البكاء، فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته طالت عليه مصيبته وبكاؤه، وأي عزيز أعز عليه من نفسه؟ وأي عقوبة أشد من النار؟ وأي مخبر أصدق الله ورسوله وأهل بيته ﷺ، ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبيبة أن ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت لطال في الحال حزنه، فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله والمعصومين ولا الموت بأشد من النار، فكلما كان ألم الندم أشد كان تكفير الذنوب به أرجى، فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع.

ومن علامته تمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلا عن حلاوتها

(١) سيأتي الكلام عنه تحت عنوان (طريق العلاج لحل عقدة الإصرار)، فانتظر.

فيستبدل بالميل إلى الذنب كراهية له، وبالرغبة فيه نفرة منه. وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام لقائل قال بحضرته: (أستغفر الله)، (ثكلتك أمك أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان:

أولها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبدا.

والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة.

والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها.

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.

والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول أستغفر الله[1].

فإن قال قائل: إن الإنسان يقارف الذنوب، لأنه يشتهيها ويلتذ بها، وقد بينت الرواية السابقة هذا المعنى بقوله عليه السلام: (ما أذقت حلاوة المعصية)، فكيف يجد مرارتها بقولكم: (ومن علامته تمكن مرارة تلك

---

(١) نهج البلاغة ص٤٨٢ حديث ٤١٧.

الذنوب في قلبه بدلا عن حلاوتها)؟

قلنـا: نقـرب الجـواب بمثـال: فـإن مـن تناول عسـلا كان فيه سـم ولم يدركـه بالتـذوق واسـتلذه، ثـم مـرض وطـال مرضـه وألمـه، فـإذا قـدم إليـه عسـل فيه سـم مـرة أخـرى فتجـده ينفر منه أشـد مـا تكون النفـرة حتـى لـو كان في غاية الجـوع، بل ربـما ينفر من كل عسـل حتى لـو لم يكن فيه سـم لشـبهه بـه، فوجـدان التائب مـرارة الذنـب كذلك يكـون، وذلـك لعلمه بـأن كل ذنب فذوقـه ذوق العسـل وعمله عمل السـم ولا تصـح التوبـة ولا تصـدق إلا بمثل هذا الإيـمان. فهذا شرط تمـام النـدم وينبغـي أن يـدوم إلى المـوت، وينبغـي أن يجـد هـذه المرارة في جميـع الذنـوب، وإن لم يكـن قـد ارتكبهـا من قبـل، كما يجـد متناول السـم في العسـل النفـرة مـن المـاء البـارد كلـما علـم أن فيـه مثـل ذلك السـم، فإنـه لم يكـن ضرره من العسـل بـل بما فيه مـن السـم، ولم يكن ضرر التائـب مـن سرقتـه وزنـاه مـن حيـث أنـه سرقـة وزنا، بـل لما في السرقـة والزنـا مـن مخالفـة أمـر الله تعالى، وذلـك جـار في كل ذنب.

٣) وأما القصد الذي ينبعث منه وهو إرادة تدارك الذنب الذي اقترفه، فشرط كماله هو أن يوجب ترك كل محظور و محرم يقترفه، وامتثال كل فرض متوجه إليه في الحال، وأداء ما بذمته من حقوق مالية

للغير، وقضاء ما فاته من العبادات، وأن ينوي دوام الطاعة ودوام ترك المعصية حتى الموت. وشروط صحتها على قسمين:

أ) أما العزم المرتبط بالمستقبل، فهو أن يعقد مع الله عقد مؤكدة ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها؛ كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلا، فيعزم عزمة مؤكدة أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه.

ولا تتم التوبة الكاملة للتائب إلا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال، فإن كان له مال موروث حلال أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه، فإن رأس المعاصي أكل الحرام فكيف يكون تائبًا مع الإصرار عليه. ولا يكتفي بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات في المأكولات والملبوسات، وقد قال بعضهم: من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه الله تعالى سبع مرات لم يبتل بها. وقال آخر: من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد إليه أبدا[(١)].

ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالم أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة.

---

(١) راجع المحجة البيضاء: ج ٧، ص ٦٦.

ب) فيما يتعلق بالماضي وهو أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو بالاحتلام، ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهرًا شهرًا ويومًا يومًا ونفسًا نفسًا، وينظر إلى الطاعات التي قصر في امتثالها، وإلى المعاصي ما الذي قارفه منها، فإن كان قد ترك صلاة واجبة عدا صلاة العيدين، أو صلاها بصورة غير صحيحة لجهله فيقضيها عن آخرها[١]، فإن شك بعدد ما فاته منها حسب من مدة بلوغه، وترك القدر الذي يستيقن أنه أداه ويقضي الباقي[٢]، وأما الصوم فإن كان قد تركه في السفر أو المرض ولم يقضه أو أفطر عمدًا أو نسي النية بالليل ولم يقض فيتعرف على مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويشتغل بقضائه، وأما الزكاة والخمس فيحسب جميع ماله وعدد السنين، من أول وقت اجتمع فيه شرائط وجوبها عليه فيقضي ما أخل به من ذلك، أو أخل ببعض شروط أدائها المعتبرة، وأما الحج فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج فعليه الخروج، فإن لم يستطع فعليه الاستنابة، فإن لم يكن له كسب ومال فعليه أن يدون ذلك في وصيته ليتسنى الورثته إفراغ ذمته إن أمكنهم ذلك.

---

(١) يرجع في أحكام ذلك إلى رسائل العلماء باب قضاء الصلاة، فإن فيها تفصيل ما يجب قضاءه.

(٢) هذا هو الأحوط استحبابا، ويجوز الاقتصار على الأقل، فمثلا إذا علم بقوات فرائض عليه وشك في مقدارها بين الأقل والأكثر جاز له الاقتصار على الأقل، وإن كان الأحوط استحبابا الإتيان بالأكثر يقول السيد السيستاني (دام ظله): إذا شك في فوات فريضة أو فرائض لم يجب القضاء، وإذا علم بالقوات وتردد بين الأقل والأكثر جاز له الاقتصار على الأقل، وإن كان الأحوط استحبابة التكرار حتى يحصل العلم بالفراغ.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**من مات ولم يحج حجة الإسلام ولم يمنعه من ذلك حاجة تجحف به أو مرض لا يطيق فيه الحج أو سلطان يمنعه فليمت يهوديا أو نصرانيا**»(١)، والعجز الطارئ بعد القدرة لا يسقط عنه الحج، فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها، وأما المعاصي فينبغي أن يفتش منذ أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه الطاعات بطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه، ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته وينشر عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها، ثم ينظر فيها فما كان بينه وبين الله من حيث لا يتعلق العباد كنظر إلى غير محرم وقعود في مسجد مع الجنابة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملاهٍ وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد، فالتوبة عنه بالندم والتحسر عليها ثم الاستغفار قدر المستطاع، بأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتي من الحسنات مقدار تلك السيئات، أخذ بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (اتق الله حيث كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها)(٢)، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾(٣).

---

(١) الفصول المهمة في أصول الأئمة، للحر العاملي: ج٢، ص١٩٠.

(٢) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٣٩٣.

(٣) سورة هود: ١١٤.

فيكفر عن سماع الملاهي بسماع القرآن أو بمجالس الذكر، ويكفر عن القعود في المسجد بأ الاعتكاف فيه، ويكفر عن مس المصحف محدثة بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه، وكثرة تقبيله، أو يطبع مصحفا ويجعله وقفة، ويكفر عن شرب الخمر بكل شراب حلال هو أطيب وأحب إليه، وعد جميع المعاصي غير ممكن، وإنما المقصود سلوك طريق المضادة، فإن المرض يعالج بضده فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليه بحسنة من جنسها لكي تضادها، هي المتناسبات، فلذلك ينبغي أن يمحو كل سيئة بحسنة من جنسها تضادها، فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة، وهذا الطريق نحو والمتضادات لكي السيئات الرجاء فيه أصدق والثقة به أكبر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضا مؤثرة في المحو، فهذا حكم بينه وبين الله تعالى.

ويدل على أن الشيء يكفر بضده إن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها، والحنين إليها فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له، إذ القلب يتجافي بالهموم والغموم عن دار الهموم.

قال ﷺ: (من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم)[1]. وفي لفظ آخر

(١) المحجة البيضاء: ج٧، ص٦٧، وهو حديث مروي عن العامة.

إلا الهم بطلب المعيشة، وفي الحديث: (إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الغموم فيكون كفارة لذنوبه)[١]. ويقال: إن اللهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرفه هو ظلمة الذنوب، والهم بها وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع. فإذن الهموم أيضا مكفرات حقوق الله، فهذا حكم ما بينه وبين الله. وأما مظالم العباد ففيها معصية وجناية على حق الله، فإن الله نهى عن ظلم العباد أيضا، فما يتعلق منه بحق الله تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل والإتيان أضدادها، فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم، ويقابل غصبه الأموالهم بالتصدق بملكه الحلال، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء بالحسنات التي هي عليهم والاستغفار لهم، وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله، ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب، لأن ذلك إحياء[٢].

وبما تقدم نتعرف على أن سلوك طريق المضادة وهو تكفير السيئات بما هو من جنسها من الحسنات سلوك مشهود له في الشرع حيث كفر عن القتل بإعتاق رقبة. ثم إذا فعل ذلك كله لم يكفه ولم ينجه ما لم يخرج

(١) المصدر نفسه.

(٢) ينبغي التنبيه هنا أن ما نذكره هنا هو من شرائط كمال التوبة والكثير منها غير واجب فيرجع المكلف في ذلك إلى الفقيه ليحدد له وظيفته.

من مظالم العباد، ومظالم العباد إما في النفوس أو الأعمال أو الأعراض أو القلوب:

أما النفوس فإن جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية وإيصالها إلى المستحق إما منه أو من عاقلته، وإن كان عمدة موجبة للقصاص فبالقصاص، فإن لم يعرف فيجب عليه أن يعرف نفسه لولي الدم ويحكمه في روحه، فإن شاء عفا عنه بأخذ الدية أو بدونها، وإن شاء قتله ولا يسقط تكليفه إلا هذا، ولا يجوز إخفاء نفسه وليس هذا كالزنى والسرقة أو قطع الطريق، لأنه لا يجب في التوبة منها أن يفضح نفسه ويهتك ستره، بل عليه أن يتستر بستر الله ويقيم حدود الله على نفسه بأنواع المجاهدة، فالعفو قريب من التائبين النادمين.

وإن كان المتناول مالًا تناوله بغصب وخيانة أو غبن في معاملة أو غش أو نقص في أجرة أجير، فكل ذلك يجب فيه أن يفتش عن صاحب الحق ويرده إليه، حتى التبعات المالية التي كانت عليه في أيام صباه، كما لو كان قد سرق وهو طفل، فيجب عليه رد المبلغ المسروق إلى صاحبه فإن لم يفعل كان ظالمًا مطالبًا به يوم القيامة، إذ يستوي في الحقوق المالية الصبي والبالغ، وليحاسب نفسه على الحبات والذرات من أول أيام حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب يوم القيامة، فمن المم يحاسب نفسه

في الدنيا طال وقوفه للحساب في الآخرة.

فإن استطاع حصر جميع ما عليه من حقوق فليكتبها وليكتب أسامي أصحاب المظالم واحدة واحدة وليطف أقطار العالم وليطلبهم ليستحل منهم أو يؤد حقوقهم إليهم أو لورثتهم.

فإن شقت عليه ولم يستطع ذلك فعليه منها ما يستطيع فإن الميسور لا يسقط بالمعسور فليطلب بعضهم ممن يقدر أن يصل إليهم أو لورثتهم والباقي منهم يرجع في أمرهم إلى الحاكم الشرعي ليأذن له في صرف حقوقهم على الفقراء، وهو ما يسمى في عرف المتشرعة (بردود المظالم).

فإن اختلط ماله الحلال بالحرام ولم يعرف صاحبه ليرده إليه خمس جميع ماله، لقول أمير المؤمنين عليه السلام: (أنه إذا تصدق بخمسه حل له الباقي)[١]. وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوؤهم أو يعيبهم بالغيبة أو تعرض له بلسانه بسب ونحوه أو أذى قلبه بفعل من أفعاله كالاستهزاء والإهانة وغيرها فلابد له من الاستغفار والتدم، وينبغي له الاستحلال من ذلك الشخص واسترضاءه (فإن من كسر مؤمناً فعليه جبره)[٢].

---

(١) الكافي: ج ٥، ص ١٢٥ باب مكاسب الحرام

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٤٤ و ٤٥، بحار الأنوار ج ٦ ص ١٦٦.

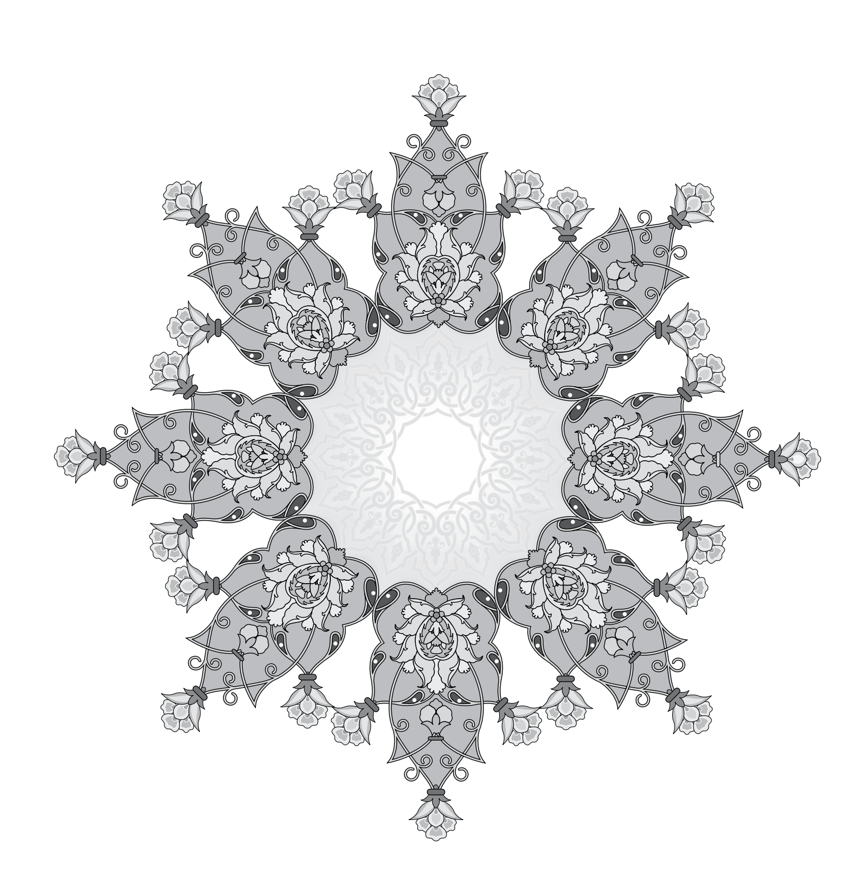


الفصل الثاني

الذنوب (آثارها - أضرارها - طبقات التائبين)

المبحث الأول: (الذنوب والمعاصي)





المبحث الأول: (الذنوب والمعاصي)

المطلب الأول: الذنوب التي يجب التوبة منها

إن التوبة - كما تقدم - هي ترك الذنب ولا يمكن ترك شيء إلا بعد معرفته وإذا كانت التوبة واجبة كانت مقدمتها - وهي معرفة الذنوب - واجبة، لأن مقدمة الواجب واجبة، والذنب عبارة عن كل ما يخالف أمر الله في ترك أو فعل وتفصيل ذلك يستدعي بيان جميع التكاليف، وليس ذلك غرضنا في هذا الكتاب، ولكنا تشير إلى مجملها باختصار فنقول وعلى الله نتوكل.

إن للإنسان أخلاق كثيرة يذكرها علماء الأخلاق لكن تنحصر مثيرات الذنوب في أربع صفات، بعضها صفات ربوبية وبعضها شيطانية وبعضها صفات بيمية وبعضها صفات بهيمية، وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة فاقتضى كل واحد من الأخلاط أثر معينة، كما أن السكنجبين وهو معجون من أخلاط هي السكر والخل والزعفران فيقتضي كل واحد منها أثرا يختلف عن آثار الأخلاط الأخرى، أما الصفات التي لا يصح أن يتحلى بها الإنسان مثل التكبر

والتجبر وحب المدح والثناء وحب العز والغني وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول: أنا ربكم الأعلى، وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوباً وهي المهلكات العظيمة التي هي كالأمهات الأكثر المعاصي، الثانية هي الصفات الشيطانية التي منها يتشعب الحسد والبغي والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمنكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة إلى البدع والضلالة، الثالثة الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والحرص على تحصيل كما إن بعض شهوة البطن والفرج، ومنه يتشعب الزنى واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات، الرابعة الصفة السبعية ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال.

وهذه الصفات تتدرج في الحصول فالصفة البهيمية هي التي تغلب في أول الأمر ثم تتلوها الصفة السبعية ثانية، ثم إذا اجتمعت استعملنا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي من الصفات الشيطانية.

الصفات كالفخر والعز والعلو والكبرياء والاستيلاء على جميع الخلق تعتبر من أمهات الذنوب ومنابعها، ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة

والنفـاق وإضمار السـوء للنـاس وبعضها على العين والسـمع وبعضها عـلى اللسـان وبعضهـا عـلى البطـن والفـرج وبعضهـا عـلى اليديـن والرجلـين وبعضهـا عـلى جميع البـدن، ولا حاجـة لبيـان تفصيل ذلك وقـد كفتنا كتـب الأخـلاق مؤنته.

ويمكن تقسيم الذنوب إلى ثلاثة أقسام، بحسب ما ورد في بعض الروايات منها: ما رواه ثقة الإسلام الكليني (ره) عن بعض أصحابنا قال: صعد أمير المؤمنين (عليه السلام) بالكوفة المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**أيها الناس إن الذنوب ثلاثة ثم أمسك**»، فقال له حبة العرني: يا أمير المؤمنين قلت: الذنوب ثلاثة ثم أمسكت، فقال: «**ما ذكرتها إلا وأنا أريد أن أفسرها ولكن عرض لي بهر حال بيني وبين الكلام، نعم الذنوب ثلاثة: فذنب مغفور، وذنب غير مغفور، وذنب نرجو لصاحبه ونخاف عليه**»، قال: يا أمير المؤمنين فبينها لنا؟ قال: «**نعم أما الذنب المغفور فعبد عاقبه الله على ذنبه في الدنيا فالله أحلم وأكرم من أن يعاقب عبده مرتين، وأما الذنب الذي لا يغفر فمظالم العباد بعضهم لبعض، إن الله تبارك وتعالى إذا برز لخلقه أقسم قسما على نفسه، فقال: وعزتي و جلالي لا يجوزني ظلم ظالم ولو كف بكف**

ولو مسحة بكف، ولو نطحة ما بين القرناء إلى الجماء، فيقتص للعباد بعضهم من بعض حتى لا تبقى لاحد على أحد مظلمة، ثم يبعثهم للحساب. وأما الذنب الثالث، فذنب ستره الله على خلقه ورزقه التوبة منه، فأصبح خائفا من ذنبه راجيا لربه، فنحن له كما هو لنفسه، نرجو له الرحمة ونخاف عليه العذاب»[١].

وسئل أبو جعفر عليه السلام: عن رجل أقيم عليه الحد في الرجم أيعاقب عليه في الآخرة؟ فقال: «**إن الله أكرم من ذلك**»[٢].

المطلب الثاني: الكبائر في روايات أهل البيت عليهم السلام

عن أبي عبدالله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[٣]، قال: الكبائر، التي أوجب الله عز وجل عليها النار[٤].

عن ابن محبوب قال: (كتب معي بعض أصحابنا إلى أبي الحسن عليه السلام

(١) الكافي: ج٢، ص٤٤٣

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سورة النساء: ٣١.

(٤) الكافي: ج٢، ص٢٧٦ تحت الرقم ١.

يسأله عن الكبائر كم هي وما هي؟ فكتب: «**الكبائر: من اجتنب ما وعد الله عليه النار كفر عنه سيئاته إذا كان مؤمنا والسبع الموجبات: قتل النفس الحرام وعقوق الوالدين، وأكل الربا، والتعرب بعد الهجرة وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف**»[1].

وعن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: «**الكبائر سبع: قتل المؤمن متعمداً وقذف المحصنة، والفرار من الزحف، والتعرب بعد الهجرة، وأكل مال اليتيم ظلما، وأكل الربا بعد البينة، وكل ما أوجب الله عليه النار**»[2].

وعن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**إن من الكبائر عقوق الوالدين، واليأس من روح الله، والأمن لمكر الله**»[3].

وعن إسحاق بن عمار، عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾[4]، قال:

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٧٦ تحت الرقم ٢.

(٢) المصدر نفسه: ج٢، ص٢٧٧ تحت الرقم ٣.

(٣) المصدر نفسه: ج٢، ص٢٧٨ تحت الرقم ٤.

(٤) سورة النجم: ٣٢.

«**الفواحش الزنى والسرقة، واللمم: الرجل يلم بالذنب فيستغفر الله منه**». قلت: بين الضلال والكفر منزلة؟ فقال: «**ما أكثر عرى الإيمان**»[(١)].

وعن مسعدة بن صدقة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**الكبائر: القنوط من رحمة الله، واليأس، من روح الله، والأمن من مكر الله، وقتل النفس التي حرم الله، وعقوق الوالدين، وأكل مال اليتيم ظلما، وأكل الربا بعد البينة، والتعرب بعد الهجرة، وقذف المحصنة، والفرار من الزحف**»، فقيل له: أرأيت المرتكب للكبيرة يموت عليها، أتخرجه من الإيمان، وإن عذب بها فيكون عذابه كعذاب المشركين، أو له انقطاع؟ قال: «**يخرج من الإسلام إذا زعم أنها حلال ولذلك يعذب أشد العذاب وإن كان معترفا بأنها كبيرة وهي عليه حرام وأنه يعذب عليها وأنها غير حلال، فإنه معذب عليها وهو أهون عذابا من الأول ويخرجه من الإيمان ولا يخرجه من الإسلام**»[(٢)].

وعن الأصبغ بن نباتة قال: جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال:

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٧٧ تحت الرقم ٧.

(٢) وسائل الشيعة: ج١٥، ص٣٢٤ تحت رقم ١٣.

يا أمير المؤمنين إن ناسا زعموا أن العبد لا يزني وهو مؤمن ولا يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر وهو مؤمن ولا يأكل الربا وهو مؤمن ولا يسفك الدم الحرام وهو مؤمن، فقد ثقل علي هذا وحرج منه صدري حين أزعم أن هذا العبد يصلي صلاتي ويدعو دعائي ويناكحني وأناكحه ويوارثني واوارثه وقد خرج من الإيمان من أجل ذنب يسير أصابه، فقال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «**صدقت سمعت رسول الله ﷺ يقول، والدليل عليه كتاب الله: خلق الله عز وجل الناس على ثلاث طبقات وأنزلهم ثلاث منازل وذلك قول الله عز وجل في الكتاب: أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسابقون، فأما ما ذكر من أمر السابقين فإنهم أنبياء مرسلون وغير مرسلين، جعل الله فيهم خمسة أرواح: روح القدس وروح الإيمان وروح القوة وروح الشهوة وروح البدن، فبروح القدس بعثوا أنبياء مرسلين وغير مرسلين وبها علموا الأشياء وبروح الإيمان عبدوا الله ولم يشركوا به شيئا وبروح القوة جاهدوا عدوهم وعالجوا معاشهم وبروح الشهوة أصابوا لذيذ الطعام ونكحوا الحلال من شباب النساء**

وبروح البدن دبوا ودرجوا فهؤلاء مغفور لهم مصفوح عن ذنوبهم، ثم قال: قال الله عز وجل: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[1]**، ثم قال: في جماعتهم (وأيدهم بروح منه)، يقول: أكرمهم بها ففضلهم على من سواهم، فهؤلاء مغفور لهم مصفوح عن ذنوبهم، ثم ذكر أصحاب الميمنة وهم المؤمنون حقا بأعيانهم، جعل الله فيهم أربعة أرواح: روح الإيمان وروح القوة وروح الشهوة وروح البدن فلا يزال العبد يستكمل هذه الأرواح الأربعة حتى تأتي عليه حالات**»، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين ما هذه الحالات؟ فقال: «**أما أولاهن فهو كما قال الله عز وجل:** ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ **فهذا ينتقص منه جميع الأرواح وليس بالذي يخرج من دين الله لأن الفاعل به رده إلى أرذل عمره فهو لا يعرف للصلاة وقتا ولا يستطيع التهجد بالليل ولا بالنهار ولا القيام في الصف مع الناس، فهذا نقصان من**

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٣.

روح الإيمان وليس يضره شيئا، ومنهم من ينتقص منه روح القوة فلا يستطيع جهاد عدوه ولا يستطيع طلب المعيشة ومنهم من ينتقص منه روح الشهوة فلو مرت به أصبح بنات آدم لم يحن إليها ولم يقم وتبقى روح البدن فيه فهو يدب ويدرج حتى يأتيه ملك الموت فهذا الحال خير لأن الله عز وجل هو الفاعل به وقد تأتي عليه حالات في قوته وشبابه فيهم بالخطيئة فيشجعه روح القوة ويزين له روح الشهوة ويقوده روح البدن حتى توقعه في الخطيئة، فإذا لامسها نقص من الإيمان وتفصى منه فليس يعود فيه حتى يتوب، فإذا تاب تاب الله عليه وإن عاد أدخله الله نار جهنم، فأما أصحاب المشأمة فهم اليهود والنصارى يقول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ يعرفون محمد والولاية في التوراة والإنجيل كما يعرفون أبناءهم في منازلهم ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ إنك الرسول إليهم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ فلما جحدوا ما عرفوا ابتلاهم [الله] بذلك فسلبهم روح الإيمان وأسكن أبدانهم ثلاثة أرواح روح

القوة وروح الشهوة وروح البدن، ثم أضافهم إلى الأنعام، فقال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ﴾ لأن الدابة إنما تحمل بروح القوة وتعتلف بروح الشهوة وتسير بروح البدن»، فقال [له] السائل: أحييت قلبي بإذن الله يا أمير المؤمنين[1].

المطلب الثالث: آثار الذنوب

لا شك أن للذنوب والمعاصي أضرار كبيرة على الفرد والمجتمع وآثارها وخيمة في الدنيا والآخرة، والعاقل هو من يعلم شؤم المعصية ومضارها، فلا يجعل للشيطان عليه سبيلا فيقطع جميع الطرق التي تربط الشيطان بالإنسان.

ويجعل الله تعالى فقط و فقط نصب عينيه ويقبل عليه بقلب سليم وعقل واع ونفس مطمئنة وأن يحكم عقله على جميع جوارحه، ولا يسمحن للهوى والنفس الأمارة بالسوء أن يتحكما به.

والإخلاص أنفع الأدوية لمن أراد التوبة الصادقة ومجاهدة النفس في سبيل الله سبحانه وتعالى.

وليبشروا بالخير أولئك الذين يكابدون أنفسهم ويلزموها الطاعة

(١) الكافي: ج٢، ص٢٨٣-٢٨٤، تحت الرقم ١٦.

ويمنعوا عن المعصية، فإن الله كريم جواد وجزائه وعطائه بلا حدود، والطاعة هي حصن الله الأعظم وحرزه الأمن الذي من دخله كان في أمن الله وأمانه.

وليجعلوا الدعاء سلاحهم في كل يسر وعسر، فإنه الوسيلة إلى الله والسبب الحقيقي في دفع كيد الشيطان، والحصن الذي يلتجئ إليه خوفا من السقوط في مكائده.

فقد ورد عن النبي الأكرم ﷺ: «**من أراد أن لا يوقفه الله يوم القيامة على قبيح أعماله، ولا ينشر له ديوان، فليقرأ هذا الدعاء في دبر كل صلاة، وهو: اللهم إن مغفرتك أرجى من عملي، وإن رحمتك أوسع من ذنبي، اللهم إن كان ذنبي عندك عظيمًا فعفوك أعظم من ذنبي، اللهم إن لم أكن أهلا أن ترحمني فرحمتك أهل أن تبلغني وتسعني، لأنها وسعت كل شيء برحمتك يا أرحم الراحمين**»[١].

كما وردت بعض الأدعية المباركة عن طريق النبي وآله (صلوات الله عليهم) لكفاية كيد و شر إبليس (لعنه الله). نذكر منها هذا الدعاء تعميما للفائدة ودفعا لشر الشيطان الرجيم: «**اللهم إن إبليس عبد من**

(١) بحار الأنوار: ج٨٣، ص٣٨.

عبيدك يراني من حيث لا أراه وأنت تراه من حيث لا يراك وأنت أقوى على أمره كله وهو لا يقوى على شيء من أمرك اللهم فأنا أستعين بك عليه يا رب فإني لا طاقة لي به ولا حول ولا قوة لي عليه إلا بك يا رب، اللهم إن أرادني فأرده وإن كادني فكده واكفني شره واجعل كيده في نحره برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين»[(١)].

وأما من نسي الله تعالى واتكل على الجوانب المادية، فإنه لن يحصد سوى الندامة والخسران والذل والهوان، وتتلاقفه الشياطين من كل جانب، لتفسد فطرته وتستعمله في خراب الدنيا وخسران الآخرة.

فما الذي أخرج أبوينا من الجنة (دار النعيم) إلى دار الفناء والآلام والأحزان والمصائب.

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده بعد أن كان طاووس الملائكة، وما الذي جعله بعيدًا بعد أن كان قريبًا، وملعونًا بعد أن كان مرحومًا وقبيحًا بعد أن كان جميلًا، وما الذي جعله من أهل النار بعد أن كان من أهل الجنة.

وما الذي أبدل إيمانه كفران فهان على الله تعالى غاية الهوان، وما

(١) المجتبى، لابن طاووس: ص٢١.

الذي أغرق أهل الأرض كلهم، فلم ينج من الغرق إلا نوح عليه السلام ومن نجا معه من المؤمنين. وما الذي سلط الريح على قوم عاد فأهلكهم بها، فتركتهم كأنهم أعجاز نخل خاوية. وما الذي أهلك قوم ثمود وقوم لوط وقوم شعيب، وما الذي أغرق فرعون وقومه ثم باءوا بغضب من الله. وما الذي أهلك القرون الأولى من بعد نوح، وما الذي بعث على بني إسرائيل العقاب والعذاب. إنه العصيان وعدم إطاعة الرب وعدم الاستجابة لأنبياء الله ورسله والأوصياء والصالحين. إنه التمرد على الأوامر الإلهية واتباع الهوى وعدم الامتناع عما نفى عنه الحق تعالى فكانت العاقبة كما كر آنفة. قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[2].

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت بالآجال، ومن يعيش بالإحسان أكثر ممن يعيش بالأعمار**»[3].

أجارنا الله وإياكم من سوء المنقلب وسوء الخاتمة إنه سميع مجيب.

---

(١) سورة الشورى: ٣٠.

(٢) سورة الانفطار: ١٣ – ١٤.

(٣) سورة بحار الأنوار: ج ٥، ص ١٤٠.

المطلب الرابع: أضرار الذنوب والمعاصي

ذكر أهل العلم للمعاصي والذنوب أضرارا كثيرة نذكر منها:

١)حرمان نعمة العلم، لأنه نور يقذفه الله في القلب، وظلمة المعصية تطفأ ذلك النور

٢) المعيشة الضنكى والوحشة في النفس بسبب الإعراض عن الله تعالى والوقوع في حبائل الشيطان قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾[1].

٣) تتعسر بوجهه أيسر الأمور لعصيانه الرب العظيم، فلا توفيق ولا تسهيل.

٤) حرمان الطاعة ولذتها، بسبب قسوة القلب لتلوثه بالذنوب والمعاصي وازدياد الحجب والرين عليه فلا يفقه قولا ولا يعي هداية.

٥) حرمان التوفيق في الدارين ومحق البركة، وزوال النعم وقصر العمر وكثرة موت الفجأة..

٦) وهن البدن وكثرة الابتلاءات والأمراض الروحية والبدنية.

٧) انعدام الغيرة وزوال الحياء وزوال النعم ونزول النقم ودخول

---

(١) سورة طه: ١٢٤.

الرعب في قلب العاصي.

٨) سوء العاقبة واستحقاق العذاب يوم القيامة بدخول النار..

٩) المعصية تورث الذل وتفسد العقل وتقسي القلب وتوجب اللعنة والهوان.

١٠) حرمان الإنسان للكثير من النعم الدنيوية والأخروية.

١١) الذنوب والمعاصي تنشر الفساد في البر والبحر، قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(١).

وهناك الكثير من النتائج والآثار للذنوب والآثام لا تعد ولا تحصى وما ذكر كان من باب الإشارة إلى أبرزها وأكثرها وضوحا، ومن ينظر بعين البصيرة جيدًا يرى ما خفي على الآخرين.

وأخيرا: على الفرد المؤمن أن يتمسك بوصية الله (جل وعلا) لعباده من الأولين والآخرين، وأن يتقي الله حق تقاته لينال رضاه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾(٢).

---

(١) سورة الروم: ٤١.

(٢) سورة النساء: ١٣١.

المبحث الثاني: طبقات التائبين

المطلب الأول: موعظة من الإمام علي بن الحسين عليهما السلام

عن سعيد بن المسيب قال: كان علي بن الحسين عليهما السلام يعظ الناس ويزهدهم في الدنيا ويرغبهم في أعمال الآخرة بهذا الكلام في كل جمعة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وحفظ عنه وكتب كان يقول: «**أيها الناس اتقوا الله واعلموا أنكم إليه ترجعون فتجد كل نفس ما عملت في هذه الدنيا من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه، ويحك يا ابن آدم الغافل وليس بمغفول عنه، يا ابن آدم إن أجلك أسرع شيء إليك، قد أقبل نحوك حثيثا يطلبك**[1]**، ويوشك أن يدركك وكأن قد أوفيت أجلك وقبض الملك روحك وصرت إلى قبرك وحيدا فرد إليك فيه روحك واقتحم عليك فيه ملكان ناكر ونكير لمسائلتك وشديد امتحانك، ألا وإن أول ما يسألانك عن ربك الذي كنت تعبده وعن نبيك**

(١) أي مسرعاً، حريصاً.

الذي أرسل إليك وعن دينك الذي كنت تدين به وعن كتابك الذي كنت تتلوه وعن إمامك الذي كنت تتولاه، ثم عن عمرك فيما كنت أفنيته، ومالك من أين اكتسبته وفيما أنت أنفقته، فخذ حذرك وانظر لنفسك وأعد الجواب قبل الامتحان والمسائلة والاختبار فإن تك مؤمنا عارفا بدينك، متبعا للصادقين، مواليا لأولياء الله لقاك الله حجتك وأنطق لسانك بالصواب وأحسنت الجواب وبشرت بالرضوان والجنة من الله عز وجل واستقبلتك الملائكة بالروح والريحان وإن لم تكن كذلك تلجلج لسانك ودحضت حجتك وعييت عن الجواب[1] وبشرت بالنار واستقبلتك ملائكة العذاب بنزل من حميم وتصلية جحيم.

واعلم يا ابن آدم إن من وراء هذا أعظم وأفظع وأوجع للقلوب يوم القيامة، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود، يجمع الله عز وجل فيه الأولين والآخرين ذلك يوم ينفخ في الصور وتبعثر

(١) التلجلج: التردد في الكلام. ودحضت حجته لحوضة أي بطلت. و عييت عن الجواب أي عجزت عنه.

فيه القبور[١]، وذلك يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين وذلك يوم لا تقال فيه عثرة[٢]، ولا يؤخذ من أحد فدية ولا تقبل من أحد معذرة ولا لأحد فيه مستقبل توبة، ليس إلا الجزاء بالحسنات والجزاء بالسيئات، فمن كان من المؤمنين عمل في هذه الدنيا مثقال ذرة من خير وجده ومن كان من المؤمنين عمل في هذه الدنيا مثقال ذرة من شر وجده.

فاحذروا أيها الناس من الذنوب والمعاصي ما قد نهاكم الله عنها وحذركموها في كتابه الصادق والبيان الناطق، ولا تأمنوا مكر الله وتحذيره وتهديده عندما يدعوكم الشيطان اللعين إليه من عاجل الشهوات واللذات في هذه الدنيا، فإن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[٣]**، وأشعروا قلوبكم خوف الله وتذكروا ما قد**

---

(١) بعثرت الشيء إذا استخرجته وكشفته وبعثرت حوضي أي هدمته وجعلت أسفله أعلاه وسميت القيامة بالأزفة لأزوفتها أي لقربها إذا القلوب لدى الحناجر، فإنها ترتفع عن أماكنها فتلتصق بحلوقهم فلا تعود، فيتروحوا فلا تخرج فيستريحوا.

(٢) من الإقالة وهي نقض البيع والعثرة: الزلة.

(٣) الأعراف: ٢٠١: أي لمم من الشيطان وطائف فاعل منه، يقال طاف يطيف طيفا فهو طائف.

وعدكم الله في مرجعكم إليه من حسن ثوابه كما قد خوفكم من شديد العقاب، فإنه من خاف شيئاً حذره ومن حذر شيئاً تركه ولا تكونوا من الغافلين المائلين إلى زهرة الدنيا الذين مكروا السيئات، فإن الله يقول في محكم كتابه: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[1]. فاحذروا ما حذركم الله بما فعل بالظلمة في كتابه، ولا تأمنوا أن ينزل بكم بعض ما تواعد به القوم الظالمين في الكتاب والله لقد وعظكم الله في كتابه بغيركم، فإن السعيد من وعظ بغيره، ولقد أسمعكم الله في كتابه ما قد فعل بالقوم الظالمين من أهل القرى قبلكم، حيث قال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾[2]، وإنما عنى بالقرية أهلها حيث يقول: ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾، فقال عز وجل:

---

(١) النحل: ٤٥ – ٤٧: و(تخوف) أي تنقص.

(٢) سورة الأنبياء: ١١.

﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾[(١)] (يعني يهربون) قال: ﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾[(٢)] (فلما أتاهم العذاب) ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ١٤ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾[(٣)]، **وأيم الله إن هذه عظة لكم وتخويف إن اتعظتم وخفتم، ثم رجع القول من الله في الكتاب على أهل المعاصي والذنوب فقال عزّ وجل:** ﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾[(٤)]، **فإن قلتم: أيها الناس إن الله عزّ وجل إنما عنى هذا أهل الشرك فكيف ذلك وهو يقول:** ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[(٥)].

اعلموا عباد الله أن أهل الشرك لا ينصب لهم الموازين ولا ينشر لهم الدواوين، وإنما يحشرون إلى جهنم زمرا وإنما نصب الموازين

---

(١) سورة الأنبياء: ١٢.

(٢) سورة الأنبياء: ١٣.

(٣) سورة الأنبياء: ١٤ – ١٥.

(٤) سورة الأنبياء: ٤٦.

(٥) سورة الأنبياء: ٤٧.

ونشر الدواوين لأهل الإسلام.

فاتقوا الله عباد الله واعلموا أن الله عز وجل لم يحب زهرة الدنيا وعاجلها لأحد من أوليائه ولم يرغبهم فيها وفي عاجل زهرها وظاهر بهجتها، وإنما خلق الدنيا وخلق أهلها ليبلوهم فيها أيهم أحسن عملا لآخرته، وأيم الله لقد ضرب لكم فيه الأمثال وصرف الآيات لقوم يعقلون ولا قوة إلا بالله.

فازهدوا فيما زهدكم الله عز وجل فيه من عاجل الحياة الدنيا، فإن الله عز وجل يقول وقوله الحق: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، فكونوا عباد الله من القوم الذين يتفكرون ولا تركنوا إلى الدنيا فإن الله عز وجل قال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[2]، ولا تركنوا إلى زهرة الدنيا وما

---

(١) سورة يونس: ٢٤.

(٢) هود: ١١٣: أي: تطمئنوا إليهم وتسكنوا إلى قولهم.

فيها ركون من اتخذها دار قرار ومنزل استيطان فإنها دار بلغة ومنزل قلعة[١] ودار عمل، فتزودوا الأعمال الصالحة فيها قبل تفرق أيامها وقبل الأذن من الله في خرابها فكان قد أخرها الذي عمرها أول مرة وابتدأها وهو ولي ميراثها، فأسأل الله العون لنا ولكم على تزود التقوى والزهد فيها، جعلنا الله وإياكم من الزاهدين في عاجل زهرة الحياة الدنيا، الراغبين لأجل ثواب الآخرة فإنما نحن به وله وصلى الله على محمد وآله وسلم، والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته»[٢].

المطلب الثاني: أسباب تحول الصغائر إلى كبائر

ذكر العلماء إن الذنوب الصغيرة تكبر لأسباب منها:

١) الإصرار والمواظبة ولذلك قيل: لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها. ومثال ذلك قطرات من الماء تتوالى في الوقوع على الحجر فتؤثر فيه وذلك القدر من الماء لو

(١) أي ليس بمستوطن.

(٢) الكافي: ج٨، ٧٣-٧٦.

صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر والأشياء تستبان بالأضداد، فإذا كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في اظلام القلب، إلا أن الكبيرة قل ما يتصور التجري عليها من دون سبق التجري على الصغائر فقل ما يزني الزاني بغتة من غير سبق نظر محرم و مراودة ومقدمات، وقل ما يقتل بغته من غير مشاحنة سابقة ومعاداة، فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة.

روي في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «**لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار**»[(١)].

وعنه عليه السلام قال: «**لا والله لا يقبل شيئا من طاعته على الإصرار على شيء من معاصيه**»[(٢)].

وعن الباقر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[(٣)]، قال: «**الإصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر ولا يحدث نفسه بتوبة فذلك الإصرار**»[(٤)].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٨٨ تحت الرقم: ١.

(٢) المصدر نفسه: ج٢، ص٢٨٨، تحت الرقم: ٣.

(٣) سورة آل عمران: ١٣٥.

(٤) الكافي: ج٢، ص٢٨٨ تحت الرقم: ٢.

٢) ومنها أن يستصغر الذنب فإن العبد كل ما استعظمه من نفسه صغر عند الله وكل ما استصغر كبر عند الله، لأن استعظام الذنب يصدر عن نفور القلب وكراهيته له وذلك النفور والكراهية للذنب يمنعان من شدة التأثر به، بينما استصغار الذنب يكون بسبب حب الإنسان لذلك الذنب مما يوجب شدة تأثر القلب بظلام الذنب، ولذلك نجد أن الله تعالى لا يؤاخذنا بما نذنبه حال الغفلة فإن القلب لا يتأثر بما نفعله حال الغفلة، فقد ورد بسند صحيح عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**قال رسول الله** صلى الله عليه وآله: **رفع عن أمتي تسعة: الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه وما لا يعلمون وما لا يطيقون وما اضطروا إليه والحسد والطيرة والتفكر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق بشفة**»[1].

وقد ورد العديد من الأخبار التي تبين ما تقدم نذكر منها:

ورد عن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام: «**اتقوا المحقرات من الذنوب فإنها لا تغفر**»، قلت: وما المحقرات؟ قال: «**الرجل يذنب الذنب فيقول: طوبى لي إن لم يكن لي غير ذلك**»[2].

---

(١) الخصال: ٤١٧/ باب التسعة ح٩، الوسائل ١٥:٣٦٩/ أبواب جهاد النفس، باب ٥٦، ح١.

(٢) الكافي: ج٢، ص٢٨٧، تحت الرقم: ١.

وعن سماعة قال: سمعت أبا الحسن - الإمام الكاظم - عليه السلام يقول: «**لا تستكثروا كثير الخير، ولا تستقلوا قليل الذنوب فإن قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيرة، وخافوا الله في السر حتى تعطوا من أنفسكم النصف**»[1].

وعن الصادق عليه السلام: «**أن الله يحب العبد أن يطلب إليه في الجرم العظيم ويبغض العبد أن يستخف بالجرم اليسير**»[2].

٣) ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها وعد التمكن منها نعمة والغفلة عن كونه سببًا للشقاوة فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه، حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته إياه، كما يقول مثلا: أما رأيتني كيف مزقت عرضه، ويقول المناظر في مناظرته: أما رأيتني كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته وكيف استخففت به وكيف خدعته، ويقول التاجر أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف غششته وكيف غبنته بالسعر فهذا وأمثاله تكبر عندهم الصغائر، فإن الذنوب مهلكات وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به. فينبغي

---

(١) المصدر نفسه: تحت رقم ٢.

(٢) المصدر نفسه: تحت رقم ٦.

أن يكون في حال مصيبة وتأسف، بسبب غلبة العدو عليه وبسبب بعده من الله تعالى، فالمريض الذي يفرح أن ينكسر إناؤه الذي فيه دواءه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه.

٤) ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدري أنه يمهل مقتًا ليزداد بالإمهال إنما فيظن إن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[(١)].

٥) ومنها أن يأتي الذنب ويظهره ولا يستره بأن يذكر أمام الناس أنه قارف الذنب أو أن يفعله أمام الناس، فإن ذلك منه جناية على ستر الله الذي أسدله عليه وتحريك لرغبة الشر عند الآخرين الذي شاهدوه أو سمعوا منه، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته، فإن أضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه وتهيئة الأسباب لمقارفة نفس الذنب صارت جناية رابعة وعظم الأمر، وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر، فالإظهار كفران لهذه النعمة.

قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ

---

(١) سورة المجادلة: ٨.

بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾[١].

وقد روى ثقة الإسلام الكليني (ره) بإسناده عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: المستتر بالحسنة تعدل سبعين حسنة والمذيع بالسيئة مخذول والمستتر بها مغفور له**»[٢].

٦) ومنها أن يكون المذنب عالمًا يقتدي به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الإبريسم والذهب وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين ودخوله عليهم وتودده إليهم ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم وإطلاقه اللسان في الأعراض وقصده الاستخفاف، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيرًا في العالم أمادًا متطاولة، وطوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه. قال تعالى: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾[٣]، والآثار ما يلحق الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل. ونقل عن ابن عباس قوله: ويل للعالم من الأتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحتملها الناس ويذهبون بها في الآفاق[٤].

وهذا يوضح إن أمر العلماء خطر فعليهم وظيفتان:

(١) سورة التوبة: ٦٧.

(٢) الكافي: ج٢، ص٤٢٩ تحت رقم: ٢.

(٣) سورة يس: ١٢.

(٤) المحجة البيضاء: ج٧، ص٩٢.

إحداهما ترك الذنب والأخرى إخفاؤه وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب، كذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا، كما لو ترك التحمل والميل إلى الدنيا مالت طباع من دونه من الناس للتشبه به.

المطلب الثالث: طبقات التائبين

قال أهل القلوب وأقطاب رحى علم الأخلاق إن للتائبين أربع مراتب وطبقات:

الطبقة الأولى: أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة العصمة فهذه هي الاستقامة على التوبة وصاحبها هو السابق بالخيرات واسم هذه التوبة (التوبة النصوح) واسم هذه النفس الساكنة (النفس المطمئنة) التي ترجع إلى ربها راضية مرضية وأهل هذه المرتبة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات، فمن تاب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففترت ولم يشغله منازعة شهوته عن السير في طريق القرب الإلهي، وإلى ما لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه نجح في جهادها والتغلب على نوازع الشهوة فيها، ثم تختلف درجات النزاع أيضا في هذه المرتبة

بحسب طول عمر التائب وكثرة ابتلائه بما يثير شهوته ودرجة الإثارة وغير ذلك مما يطول ذكره.

فقد يقصر عمر التائب وغبط على ذلك لسلامته من الذنوب، وقد يطول عمره فيطول جهاده لنفسه وصبره، وحال هذا أعلى وأفضل من السابق «**إذ الأجر على قدر المشقة**»(١)، «**وأفضل الأعمال أحمزها**»(٢).

الطبقة الثانية: تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وكبائر الفواحش كلها، إلا إنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد و قصد، ولكنه يبتلى بها من غير أن يكون عازمًا على الإقدام على المعاصي. ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم و تأسف وجدد عزمه على أن يحترز من أسبابها التي تعرضه لها، وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة، إذ تلوم صاحبها على ما يجترئه من ذنوب، وهذه أيضا مرتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى وأغلب التائبين هم من أهل هذه الطبقة، لأن الشر معجون بطينة الآدمي وقلما ينفك عنه وإنما غاية سعيه أن يتغلب خيره على ما فيه من شر، وهؤلاء هم الوعد الحسن من الله تعالى، إذ قال عز من قائل: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ

(١) عيون الحكم والمواعظ: ص ٢١٨، والنص هو: «**ثواب العمل على قدر المشقة فيه**».

(٢) النهاية في غريب الحديث: ج ١، ٤٠ ٤ ص، «حمز»، وأحمزها، أي أقواها وأشدها.

﴿ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾[١]، فكل إلمام بصغيرة فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه، وقد قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٢]، فأثنى عليهم من ظلمهم أنفسهم وتندمهم ولومهم أنفسهم عليه.

والآيات السابقة أدلة على إن هذا القدر من الذنوب لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين، فلا ينبغي أن ييأس الناس إذا تابوا ثم أصابهم اللمم.

الطبقة الثالثة: أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة، إلا إنه رغم ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يود لو أقدره الله على قمعها وكفاه شرها هذه أمنيته في حال قضاء الشهوة وعند الفراغ يندم ويقول: ليتني لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها، لكنه تسول له نفسه ويسوف توبته مرة

(١) سورة النجم: ٣٢.

(٢) سورة آل عمران: ١٣٥.

بعد أخرى ويوما بعد يوم، فهذه النفس هي التي تسمى النفس المسوّلة، وصاحبها من الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]، فبما إنه مواظب على الطاعات وكاره لما يتعاطاه فعسى الله أن يتوب الله عليه وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره، فربما يختطف ويموت قبل التوبة، فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه القول وينال ما استحقه جزاء أعماله.

توضيح ذلك: من الشواهد التي لا ينكرها أحد إن الإنسان لا يكون فقيه - مثلا - إلا بعد طول تفقيه لنفسه وتعليم وترك الكسل والمواظبة على درء الجهل، وحصول البرء من المرض ودوام الصحة لا يحصلان إلا بأخذ الدواء والابتعاد عن مسببات المرض، كذلك حال الآخرة فإن سعادات الآخرة ودركاتها يرتبطان بالحسنات التي يفعلها الإنسان والسيئات التي يقترفها، فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها والقرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهرًا بطول التركية والتطهير، لذلك قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ

---

(١) سورة التوبة: ١٠٢.

زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾[١].

فمهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب نقدأ والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان.

فإن الخوف من الخاتمة قبل التوبة وكل نفس فهو خائمة النفس الذي قبله لمكان ب غياب وقت المنية وعدم معرفتنا به فبأي لحظة قد يفارق الإنسان هذه الدنيا وهو على غير توبة وحينئذ تدوم الحسرات حين لا ينفع التحسر.

الطبقة الرابعة: أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع الشهوات، فهذا من جملة المصرين، وهذه النفس هي النفس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير، ويخاف على هذا سوء الخاتمة، وأمره في مشيئة الله فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين، وقد تناله شفاعة الشافعينعليهم السلام إذ لا يستحيل أن يدخل الإنسان بيت خرباً فيجد كنزاً.

وكما إن من ترك السعي وترك نفسه وعياله جياعًا يزعم إنه ينتظر

(١) سورة الشمس: ٧ – ١٠.

فضل الله عليه بأن يرزقه كنزة وهو جالس في داره، يراه ذوو البصائر أحمقًا ومغرورًا وإن كان ما ينتظره ليس مستحيلا على الله تعالى، فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة معدود عند أرباب القلوب من المعتوهين.

أما علم هذا المسكين إن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وإنما ينال ذلك بالكسب فهكذا قدره رب العزة وأجرى بها سنته ولا تبديل لسنة الله، ولا يعلم المغرور: أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد، وأن سنته لا تبديل لها فيهما جميعا، وأنه قد أخبر بذلك إذ قال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾[1]، فتراه في الآخرة أوقف النتيجة على السبب والأجر على العمل وأجاز في الدنيا العطاء من غير استحقاق!

المطلب الرابع: ما ينبغي أن يبادر إليه التائب

تقدم سابقا إن على التائب الندم والاشتغال بالتكفير عن ذنوبه بحسنات تضاد الذنب، فإن لم يستطع العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الطريقين في تكفير الذنوب، فلا ينبغي أن يترك الطريق الثاني، وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة لتمحوها فيكون ممن خلط

(١) سورة النجم: ٣٩.

عملا صالحا وآخر سيئًا عملا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾[(٢)]، والحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب أو باللسان أو بالجوارح، ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها، فأما القلب فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ويتذلل تذلل العبد الآبق ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وأمام الناس، فما للعبد الآبق وجه للتكبر على سائر العباد، وبأن يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات.

وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار، فيقول ربي ظلمت نفسي سوءًا فاغفر لي ذنوبي، وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[(٣)].

وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات، وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا تبع بأعمال صالحة كان العفو عنه مرجوة، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ

---

(١) سورة هود: ١١٤.

(٢) سورة الرعد: ٢٢.

(٣) سورة الأنفال: ٣٣.

وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾[١]، ومن جملة، الطاعات والقربات التي تكون سببا في تبديل السيئات بالحسنات الصلاة. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٢].

وإليك جملة من روايات أهل بيت القداسة والطهارة التي تبين جبران الذنوب ببعض الأعمال، ففي الروايات تأكيد صريح حول التوبة وتلافي الذنوب السابقة ولا يكفي الندم على ما فعل بل يجبر الآثار السيئة للذنوب بالأعمال الصالحة؛ وأحيانا هذا الجبران يظهر بوجوه خاصة حتى يشكل عاملا تربويًا وتكامليًا للإنسان وفي ظله تحبر جميع الآثار السيئة للذنب:

١) قال الرسول الأكرمﷺ: «**اتق الله حيث كنت، وخالق الناس بخلق حسن، وإذا عملت سيئة فاعمل حسنة تمحوها**»[٣].

٢) وقال الإمام الصادقعليه السلام: «**من عمل سيئة في السر فليعمل حسن في السر، ومن عمل سيئة في العلانية فليعمل حسنة في العلانية**»[٤].

(١) سورة الفرقان: ٧٠.

(٢) سورة العنكبوت: ٧.

(٣) بحار الأنوار: ج٧١، ص٢٦٢. الوسائل، العاملي: ج١١، ص٣٨٦.

(٤) وسائل الشيعة: ج١١، ص٣٨٣.

٣) وقال الإمام الباقر عليه السلام: «**التائب إذا لم يستبن أثر التوبة فليس بتائب: يرضي الخصماء ويعيد الصلوات ويتواضع بين الخلق، يتقي نفسه عن الشهوات...**»[١].

٤) وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**ثمرة التوبة استدراك فوارط النفس**»[٢].

٥) وقال الإمام الكاظم عليه السلام: «**من كفارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب**»[٣].

٦) سأل شخص من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما كفارة الغيبة؟ فقال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**أن تستغفر لمن اغتبته**»[٤].

٧) وقال الإمام الباقر عليه السلام: «**ثلاث كفارات: إفشاء السلام وإطعام الطعام والتهجد بالليل والناس نيام**»[٥].

---

(١) بحار الأنوار: ج٦، ص٣٠. ميزان الحكمة: ج ١ ص ٥٤٨.

(٢) مستدرك الوسائل: ج٢، ص٣٦٨.

(٣) شرح النهج، لابن أبي الحديد: ج١٨، ص١٣٥.

(٤) وسائل الشيعة: ج ١٥، ص٥٨٣.

(٥) بحار الأنوار: ج ٧٧، ص٥٢.

٨) وقال الإمام الباقرعليه السلام: «**أربع من كن فيه وكان من قرنه إلى قدمه ذنوبًا بدلها الله حسنات: الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر**»(١).

٩) وقال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن من الذنوب ذنوبًا لا تكفرها صلاة ولا صدقة**»، قيل: يا رسول الله فما يكفرها؟ قال: «**الهموم في طلب المعيشة**»(٢).

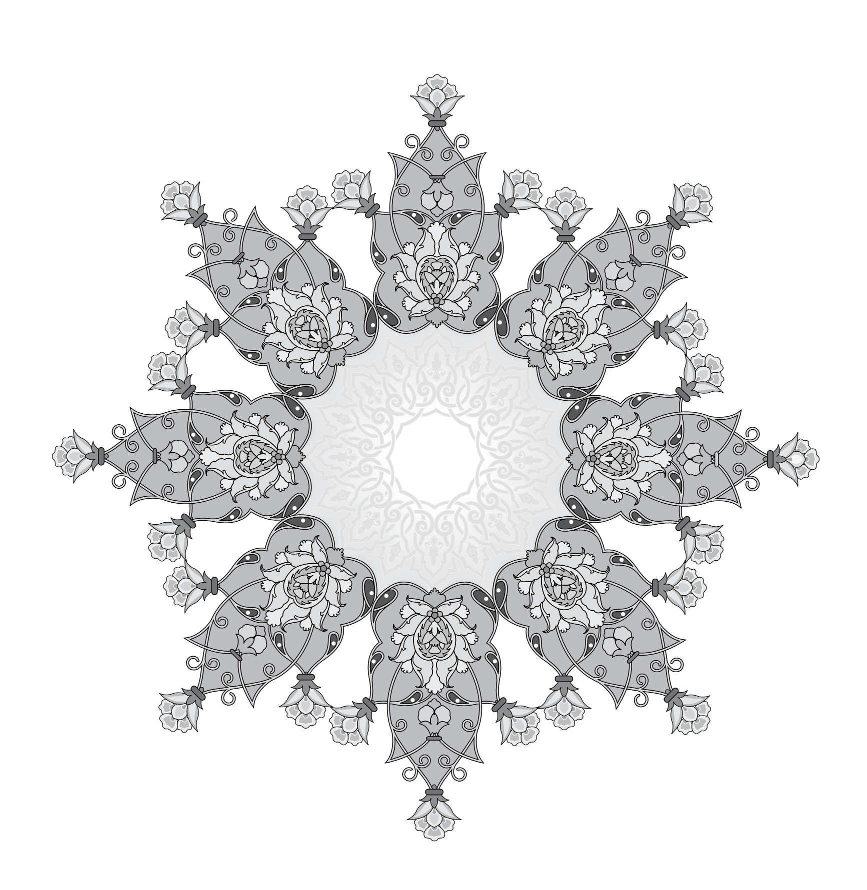
١٠) جاء شخص إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وقال: ذنوبي كثيرة وأعمالي الصالحة قليلة، فقال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم له: «**أكثر السجود فإنه يحط الذنوب كما تحط الريح ورق الشجر**»(٣).

---

(١) المصدر السابق: ج٧١، ص٣٣٢.

(٢) المصدر نفسه: ج٢٣، ص١٥٧.

(٣) المصدر نفسه: ج ٨٥، ص ١٩٢. ميزان الحكمة: ج٣، ص٤٧٧.





الفصل الثالث

التوبة وطرق علاج الإصرار على ارتكاب المعاصي

المبحث الأول: علاج الإصرار وسببه

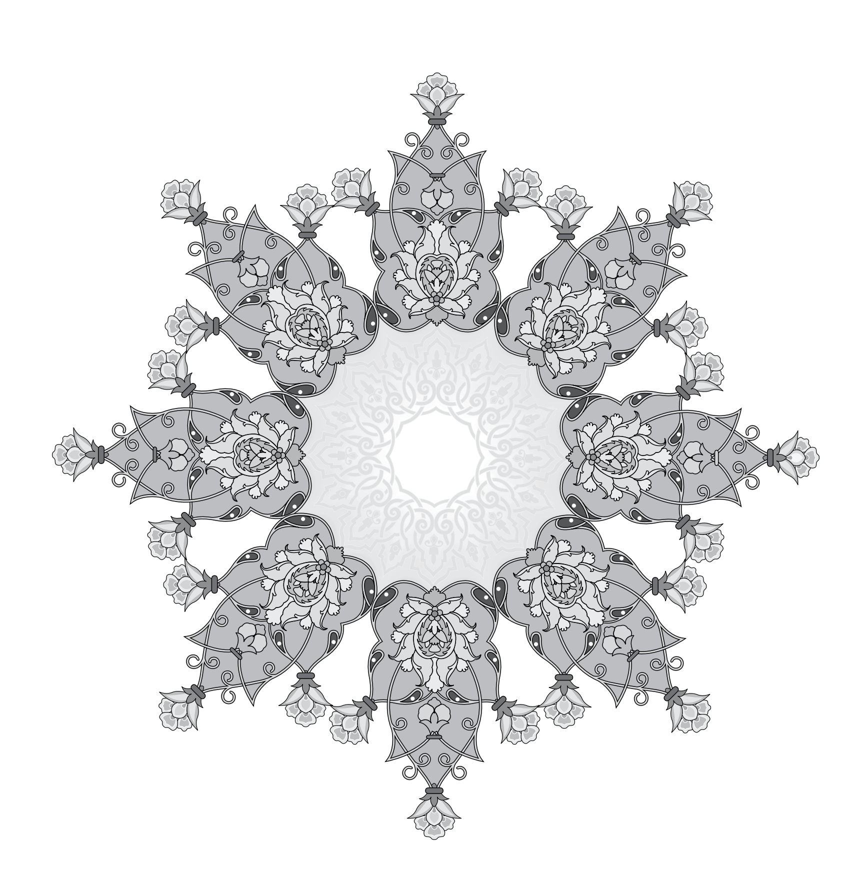
المطلب الأول: التطهير المعنوي

المطلب الثاني: طريق العلاج لحل عقدة الإصرار

المطلب الثالث: سبب إصرار العبد على المعاصي

المطلب الرابع: أهل العلم بين الخوف والرجاء





علاج الإصرار وسببه

المطلب الأول: التطهير المعنوي

ما دام الإنسان في حجاب نفسه ومشغولا بنفسه ولم يخرق الحجب. حتى الحجب النورانية. ففطرته محجوبة، والخروج من هذا المنزل. يحتاج بالإضافة إلى المجاهدات. إلى هداية الحق تعالى.

ورد في المناجاة الشعبانية المباركة: «**الهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلقة بعز قدسك، إلهي واجعلني ممن ناديته فأجابك، ولاحظته فصعق لجلالك، فناجيته سرًا**»[١].

والمراد من (كمال الانقطاع) هو الخروج من منزل النفس والانقطاع عن الغير، والالتحاق به تعالى، وهو هبة إلهية إلى الأولياء الخلّص.

وما لم تنور أبصار القلوب بضياء نظرته تعالى لا تخرق حجب النور

---

(١) مستدرك سفينة البحار: ج١٠، ص٣٤

وما دامت هذه الحجب باقية فلا سبيل إلى معدن العظمة، ولا تحصل الأرواح على التعلق بعز القدس ولا تحصل مرتبة التدلي (ثم دنا فتدلى)، فما لم يتحقق لك وصال المحبوب فيجب أن تفني نفسك في الطريق إليه. لذا يلزم تهذيب النفس وتطهير القلب عن غيره تعالى فضلا عن الأخلاق الذميمة.

فقد بعث الله تعالى الأنبياء ليعطوا البشر الرشد المعنوي ويخلصوهم من الحجب، وقد أقسم الشيطان وبواسطة أذنابه أن لا يدع أهدافهم تتحقق ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ . فالبشر نيام و مبتلون بالحجب «**الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا**»[1].

ونحن إذا تدبرنا القرآن تتدفق ينابيع المعارف إلى القلب، فالقرآن هو المنبع للفيض الإلهي ورغم أن صرف قراءته باعتباره رسالة المحبوب إلى السامع المحجوب له آثار محببة لكن التدبر فيه يهدي الإنسان إلى المقامات الأعلى والأسمى.

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[2]. وما لم تفتح هذه الأقفال والأغلال وتتحطم لا يحصل من التدبر ما هو نتيجته.

---

(١) بحار الأنوار: ج٥٠، ص١٣٤

(٢) محمد: ٢٤

ومن هنا نجد أن الآيات المباركة تحث الإنسان نحو التركية والتطهير من قذارة الطغيان بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى.

والخشية مترتبة عليه والمراد بها الخشية الملازمة للإيمان الداعية إلى الطاعة والرادعة عن المعصية. فعلينا التطهر بالطاعة وتجنب المعصية.

والفلاح والنجاح يرتبطان بتزكية النفس وتطهيرها وسموها في ظل الإيمان والعمل الصالح، كما إن شقاء الإنسان يكون بسبب التلوث بالذنوب والانحراف عن مسير التقوى.

ورد في الأثر[١] أن زوج العزيز (زليخا) قالت ليوسف لما أصبح حاكم مصر: (إن الحرص والشهوة تصيّر الملوك عبيدة وإن الصبر والتقوى يصير العبيد ملوكا فقال يوسف عليه السلام: قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

المطلب الثاني: طريق العلاج لحل عقدة الإصرار

لا يخفى أن أكثر الناس لا يخلو عن مقارفة الذنوب، ثم هم ينقسمون على مصرّين وتائبين. وغرضنا أن نبين العلاج في حل عقدة الإصرار

(١) تفسير الأمثل: ج١٥، ص ٣٥٥-٣٥٦.

(٢) يوسف: ٩٠

ونذكر الدواء فيه، فقد ذكر علماء الأخلاق أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ولا يعلم ما هو الدواء من لا يعلم الداء، إذ لا معنى للدواء إلا مكافحة أسباب الداء فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ورفعه وإبطاله، ولا يبطل الشيء إلا بضده ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يضادّ الغفلة إلا العلم ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة، والغفلة رأس الخطايا، قال الله تعالى: ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآَخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[1]. فلا دواء إذن للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر، وكما يجمع في السكنجبين بين حلاوة السكر وحموضة الخل، فهكذا ينبغي أن يفهم علاج القلب عما به من مرض الإصرار، فإذن لهذا الدواء أصلان أحدهما العلم والآخر الصبر فلا بد من بيانهما:

أولا: العلم وهو علاج الغفلة

فإن قلت: أينفع كل علم لحل الإصرار أم لابد من علم مخصوص؟

نقول: إن العلوم بجملتها أدوية لأمراض القلوب لكن لكل مرض علم يخصه كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة

(١) النحل: ١٠٨ – ١٠٩

ولكن يخص كل مرض علم مخصوص فكذلك دواء الإصرار، فلنذكر خصوص ذلك العلم بتشبيهه بمرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم، فنقول: يحتاج المريض إلى التصديق بأمور أربعة:

الأول: أن يصدق إجمالًا بأن للمرض والصحة أسبابا يتوصل إليها بالاختيار على ما رتبه مسبب الأسباب، وهذا هو الإيمان بأصل الطب فإن من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك وهذا وزانه وتطبيقه على ما نحن فيه الإيمان بأصل الشرع، وهو أن يؤمن بالله واليوم الآخر، وأن للسعادة في الآخرة سبب هو الطاعة وللشقاوة سببًا وهو المعصية.

الثاني: أنه لابد وأن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبّر عنه، لا يلبس الأمر على المرضى ولا يكذب، فإن إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرده دون هذا الإيمان وتطبيقه في مرض الأرواح والقلوب هو العلم بصدق الرسول ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام من بعده، والإيمان بأن كل ما يقولونه حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف.

الثالث: أنه لابد وأن يصغي إلى الطبيب فيما يحذره من تناوله والأسباب المضرة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف في ترك الاحتماء

فتكون شدة الخوف باعثة له على الاحتماء، ووزانه وتطبيقه من الدين الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى والتصديق بجميع ما يلقى إلى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف المقوي على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج.

الرابع: أن يصغي إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما ألزمه بالاحتماء عنه ليعرّفه أولا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله ومأكوله ومشروبه، فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شيء ولا ينفعه كل دواء، بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص، ووزانه وتطبيقه من الدين أن كل عبد ليس يبتلى بكل شهوة وارتكاب كل ذنب، بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة فتكون حاجته إلى العلم بأنها ذنوب، ثم إلى العلم بآفاتها وقدر ضررها في الدين، ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها، ثم إلى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها. فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم وإن كان لا يدري أن ما يرتكبه ذنب، فعلى العالم أن يعرّفه ذلك بأن يتكفل كل عالم بإقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد، فيعلّم أهله دينهم ويميّز ما يضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم ولا ينبغي

أن يصير إلى أن يسأل عنه، بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه فإنهم ورثة الأنبياء عليهم السلام والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم، بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ويطلبون واحدًا واحدًا فيرشدونهم، فإن مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم كما أن الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف مرضه ما لم يعرّفه غيره، فإن الخلق لا يولدون إلا جهالًا، فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع فالدنيا دار بلوى، إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم ومرض القلوب أعظم من مرض الأبدان، والعلماء أطباء والسلاطين مسؤولو هذا المشفى.

فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلّم إلى السلطان ليكف شره كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمي أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيّم والمسؤول ليقيّده بالسلاسل والأغلال ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس، وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لسببين:

إحداها: أنّ المريض به لا يدري أنه مريض.

والثانية: أنّ عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن، فإنّ عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه وما بعد الموت غير مشاهد

وعاقبة الذّنوب موت القلب وهو غير مشاهد في هذا العالم، فقلّت النفرة عن الدنوب وإن علم بها مرتكبها، فلذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض القلب ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال.

ثانياً: الصبر هو علاج الشهوة

ووجه الحاجة إليه أنّ المريض إنّما يطول مرضه لتناوله ما يضرّه وإنّما يتناول ذلك إمّا لغفلته عن مضرّته وإمّا لشدّة غلبة شهوته، فله سببان.

فما ذكرناه هو علاج الغفلة فيبقى علاج الشهوة، وطريق علاجها حاصله:

أنّ المريض إذا اشتدّت ضراوة مرضه لمأكول مضرّ فطريقه أن يستشعر عظم ضرر أكله، ثمّ يغيب ذلك المأكول عن عينه فلا يحضره ولا يجعله قريبًا منه فتنازعه نفسه عليه أكثر، ثمّ يتسلّى عنه بما يقرب منه في صورته ويشبهه لكن ليس فيه ضرر أو ضرره بسيط، ثمّ يصبر بقوّة الخوف على الألم الّذي يناله في تركه فلابدّ على كلّ حال من مرارة الصبر، فكذلك يعالج الشهوة في المعاصي كالشابّ مثلًا إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقري المخوفات الّتي جاءت فيه من كتاب الله وسنّة رسوله (صلّى الله عليه وآله) والأئمة (), فإذا

اشتدّ خوفه تباعد عن الأسباب المهيّجة لشهوته.

ومهيّج الشهوة أمران:

الأول: هو حضور المشتهي والنظر إليه، وعلاجه الهرب والعزلة.

والثاني: تناول لذائذ الأطعمة وتحصيل جميع الشهوات؛ بأن يعتاد على تحصيل رغباته وكل ما يشتهيه، وعلاجه الجوع والصوم الدّائم.

وكلّ ذلك لا يتمّ إلّا بصبر ولا يصبر إلّا عن خوف ولا يخاف إلّا عن علم ولا يعلم إلّا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع وتقليد.

فأوّل الأمر حضور مجالس الذّكر، ثمّ الاستماع عن قلب مجرّد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع، ثمّ التفكّر فيه لتمام الفهم وينبعث من تمامه لا محالة خوفه، وإذا قوي الخوف تيسّر بمعونته الصبر وانبعث الدّواعي لطلب العلاج وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك.

فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء واستشعر الخوف فاتّقى وانتظر الثّواب وصدّق بالحسنى فسييسّره الله لليسرى، وأمّا من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسييسّره الله للعسرى، ثمّ لا يغني عنه ما اشتغل به من ملاذّ الدّنيا، وما على الأنبياء إلّا شرح طرق الهدى وإنّما لله الآخرة والأولى.

المطلب الثالث: سبب إصرار العبد على المعاصي

أحدها: إن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر والنفس جبلت متأثرة بالحاضر فتأثرها بالموعود ضعيف إضافة إلى تأثرها بالحاضر.

الثاني: أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وفعلية أي ينالها العبد فورًا وقد قوي ذلك واستولى على القلب بسبب الاعتياد والألفة والعادة طبيعة خامسة كما يقولون، وترك العاجل لخوف الآجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ الْآَخِرَةَ﴾(١)، وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾(٢).

وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله ﷺ: (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات)(٣).

فإذن كون الشهوة مرهقة في الحال وكون العقاب متأخراً إلى المآل سببان ظاهران في الاسترسال مع حصول أصل الإيمان، فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدة عطشه مكذبًا بأصل الطب ولا مكذبًا بأن ذلك مضر في حقه، ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز فيهون عليه الألم المنتظر.

---

(١) سورة القيامة: ٢٠ – ٢١.

(٢) سورة الأعلى: ١٦.

(٣) المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء: ج٧، ص١٠١.

الثالث: أنه ما من مذنب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات، وقد وعد بأن ذلك يجبره إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوّف التوبة والتكفير فمن حيث رجائه التوفيق للتوبة ربما يقدم عليه مع الإيمان.

الرابع: أنه ما من مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنب لا يوجب العقوبة إيجابا لا يمكن العفو عنها فهو يذنب وينتظر العفو اتكالًا على فضل الله.

فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان. نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح في أصل الإيمان وهو كونه شاكًّا في صدق الرسل وهذا هو الكفر كالذي يحذره الطبيب عن تناول ما يضره في المرض وكان المحذر مما لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يبالي به فهذا هو الكفر.

فإن قلت: فما علاج الأسباب الخمسة؟

والجواب: هو الفكر وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول وهو تأخر العقاب أن كل ما هو آت آت وأن غدا للناظرين قريب، وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شراك نعله فما يدريه فلعل الساعة قريب ويذكر نفسه أنه في أعماله الدنيوية يتعب في الحال لتحصيل الأمان من خوف

أمر في المستقبل، فتراه يركب البحار ويقاسي الأسفار لأجل الربح الذي يحتاج إليه في معاشه، بل لو مرض وأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت، وكان الماء البارد ألذ الأشياء عنده، تراه يتركه، مع أن الموت أمله لحظة، فلينظر كيف يبادر إلى ترك ملاذه بقول إنسان غير مسلم لم تقم معجزة على طبّه أو صحة قوله، فيقول: كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندي دون قول نصراني يدعي الطب لنفسه بلا معجزة على طبه ولا يشهد له إلا عوام الخلق، وكيف يكون عذاب النار أخف عندي من عذاب المرض، وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا وبهذا التفكر بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه ويكلف نفسه تركها ويقول: إذا كنت لا أقدر على ترك لذّاتي أيام العمر وهي أيام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد؟

وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر فكيف أطيق ألم النار؟ وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدورتها وتنغصها وامتزاج صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعيم الآخرة؟

وأما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف، لأن المسوّف يبني على البقاء وأنه سيستطيع تدارك ما فاته، ولعله لا يبقى، وإن بقي فلا يقدر على الترك غدا كما لا يقدر عليه اليوم،

فليت شعري هل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة، والشهوة ليست تفارقه غدا بل تتضاعف إذ تتأكد بالاعتياد فليست الشهوة التي أكدها الإنسان بالعادة كالتي لم يؤكدها وعن هذا هلك المسوفون، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبدا شاق، وما مثال المسوّف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة، فقال: أؤخرها سنة ثم أعود إليها وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوي الضعيف.

وأما المعنى الرابع وهو انتظار عفو الله تعالى فحاله كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظرًا من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في أرض خربة، فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الإمكان وهو مثل من يتوقع السرقة في بلده وذخائر أمواله في صحن داره وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل وقال: أنتظر من فضل الله أن يسلط غفلة وعقوبة على الظالم الناهب حتى لا يتفرغ إلى داري أو إذا انتهى إلى داري مات على باب الدار فإن الموت ممكن، وقد حُكي أن مثل ذلك وقع فأنا أنتظر من فضل الله مثله فمنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنه في غاية الحماقة.

وأما الخامس: وهو الشك في الرسول، فهذا كفر، وعلاجه الأسباب التي تعرفه صدق الرسل وذلك يطول ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله فيقال له: ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو يقول أعلم أنه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة، فإن قال: أعلم استحالته كذلك فهو أخرق معتوه وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء وإن قال: أنا شاك فيه، فيقال: لو أخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك في البيت لحظة أنه قد ولغت فيه حية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله أو تتركه، وإن كان ألذ الأطعمة، فتقول: أتركه لا محالة، لأنه إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام والصبر عنه، وإن كان شديدة فهو قريب، وإن صدق فتفوتني الحياة، والموت إضافةً إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد.

وهنا نقول لمثل هذا: يا سبحان الله كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات وصدق العلماء والأولياء والحكماء كافة، بل جميع أصناف العقلاء ولست أعني بهم جهال العوام بل ذوي الألباب عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضًا فيما يقول، فليس في العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثوابًا أو عقابًا وإن اختلفوا في كيفيته، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد، وإن

كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة فلا يبقى له توقف إن كان عاقلًا مع هذا التفكر، إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد، بل لو قدرنا الدنيا مملوءة بالدرة وقدرنا طائر يلتقط في كل ألف ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص أبد الآباد شيئا فكيف يفتر رأي العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لأجل سعادة تبقى إلى الأبد، وذلك لا منتهى له، ولذلك قال أبو العلاء المعري:

قال المنجم والطبيب كلاهما   لا يحشر الأموات قلت إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسر   أو صح قولي فالخسار عليكما

ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكاً: «**إن صح ما قلت فقد تخلصنا جميعا وإلا فقد تخلصنا وهلكت**»[1].

ومراده عليه السلام: أن العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال.

وهنا لنا أن نسأل: إن الإنسان إذا أخضع تصرفه للفكر، فإنه يرى هذه الأمور جلية، لكن القلوب لا تنصاع إلى ما يقتضيه الفكر، فما علاج القلوب لردها إلى الفكر لا سيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله؟

ونقول في مقام الجواب: إن المانع من الفكر أمران:

---

(١) المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء: ج٧، ص ١٠٤.

أحدهما: أن الفكر النافع هو التفكر في عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم المقيم، وهذا فكر لدّاغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة.

الآخر: إن الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات، وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقته فصار عقله مسخرًا لها، فهو مشغول بتدبير حيلته وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة والعقل يمنعه من ذلك.

وعلاج هذين المانعين أن يقول لقلبه: ما أشد غباوتك في الاحتراز والابتعاد عن التفكّر في الموت وما بعده تألّمًا بذكره، فكيف تصبر على مقاساة الموت إذا وقع عليك وهو مما لا مفر منه؟

وأما الثاني: وهو كون الفكر مفوتا للذّات الدنيا فهو أن يعلم أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم، فإنها لا آخر لها ولا كدورة فيها، ولذات الدنيا سريعة الدثور والفناء وهي مشوبة بالمكدرات فما فيها لذة صافية عن كدر وتعب، وفي التوبة عن المعاصي والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته وطول الأنس به،

وهذا مما لا يدركه إلا من تاب حقا، وليس آكل الحلاوة كواصفها، ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الأنس بمناجاة الله لكان ذلك كافيًا، فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة، نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها تصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدن كما كان الشر ديدنا، فالنفس قابلة ما عودتها تتعود، والخير عادة والشر لجاجة، فإذن هذه الأفكار المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن الذات ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ ومنبهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل تحت الحصر فيصير الفكر موافقة للطبع، فيميل القلب إليه ويعبر عن السبب الذي أوقع الموافقة بين الطبع وبين الفكر - الذي هو سبب الخير - بالتوفيق إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة.

وقد روي في حديث طويل أنه قام عمار بن ياسر رضي الله عنه فقال لعلي عليه السلام: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بني؟ فقال عليه السلام: «**بني الكفر على أربع دعائم: على الجفاء والعمى، والغفلة، والشك، فمن جفا فقد احتقر الحق، وجهر بالباطل ومقت العلماء وأصر على الحنث العظيم؛ ومن عمي نسي الذكر واتبع الظن، وطلب المغفرة بلا توبة ولا استكانة؛ ومن غفل حاد عن الرشد وغرته الأماني، وأخذته**

الحسرة والندامة، وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب»[١].

فـما ذكرنـاه بيـان لبعض آفـات الغفلة عـن التفكير، وهـذا القدر في التوبة كاف.

المطلب الرابع: أهل العلم بين الخوف والرجاء

كما إن فقد طبيب الأبدان يقتضي الهلاك كذلك فقد أطباء القلوب والأرواح، فإن الأطبّاء هم العلماء، ولهم في علاج مرضاهم فنون، فلا تجدهم يرغبون العوام ويستميلون قلوبهم حتى يؤدي بهم ذلك إلى الأرجاء وطول الأمل وترك العمل وذكر دلائل الرّحمة؛ لأنّ ذلك ألذّ في الأسماع وأخفَ على الطباع؛ فينصرف الخلق عن مجالس الوعظ. وقد استفادوا مزيد جرأة على المعاصي ومزيد ثقة بفضل الله، كما لا تجدهم يؤيسون الناس عن رحمة الله تعالى فالرّجاء، والخوف دواءان ولكن لشخصين متضادّي العلة؛ أمّا الذي غلب عليه الخوف حتّى هجر الدّنيا بالكليّة وكلّف نفسه ما لا يطيق وضيّق العيش على نفسه بالكليّة فتكسر سورة إسرافه في الخوف بذكر أسباب الرّجاء ليعود إلى الاعتدال، وكذا المصرّ على الذّنوب المشتهي للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس

---

(١) كنز العمال، المتقي الهندي: ج١٦، ص١٩٠، باب خطب علي عليه السلام ومواعظه.

استعظاما لذنوبه التي سبقت يعالج أيضاً بأسباب الرّجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب. فأمّا معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرّجاء فلا يجوز فإنه حينئذ يغريه بالمعصية ويحبّب إليه الذنوب.

فما هو الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في وعظه مع الخلق؟

والجـواب: أنّ ذلـك يطـول ولا يمكـن اسـتقصاؤه نعـم نشـير إلى الأنـواع النافعـة في حلّ عقـدة الإصرار، وحمل الناس عـلى ترك الّنوب وهـي أربعـة أنواع:

النوع الأوّل: أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوّفة للمذنبين والعاصين؛ وكذلك ما ورد من الأخبار الدالة على المطلوب؛ والآثار في ذمّ العاصي ومدح التائبين لا تحصى، فينبغي أن يستكثر الواعظ منها إن كان هو وارث رسول الله ﷺ فإنه ما خلف دينار ولا درهما إنما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما أصاب من العلم.

والنوع الثاني: حكايات أولياء الله تعالى والعلماء وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق، وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والأخبار ورود الأسمار، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار ليعلم أن الأولياء لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب

الكبار، نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثما ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر، فهذا أيضا مما ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصرين، فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة.

النوع الثالث: أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنب، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله فينبغي أن يخوّف به، فإن الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر حتى قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته عن القلوب ويستولي عليه أعداؤه وفي الخبر: «**إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»[١]. وورد أيضا: «**إن العبد ليذنب الذنب فيزوي عنه الرزق**»[٢].

وقال بعضهم: ليست اللعنة سواداً في الوجه ونقصانه في المال إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو أشد منه، وهو كما (قالوا) لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد، فإذا لم يوفق للخير ويسر له الشر

---

(١) مستدرك الوسائل، للميرزا النوري: ج ٥، ص ١٧٨.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٢٧٠.

فقد أبعد، والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان، وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع في مجالسة العلماء المنكرين للذنوب وعن مجالسة الصالحين بل يمقته الصالحون، وفي الخبر: «**ما أنكرتم من زمانكم فبما غيرتم من أعمالكم**»[١].

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام قال: «**قال أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى:** ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[٢]: **ليس من التواء عرق ولا نكبة حجر ولا عثرة قدم ولا خدشة عود إلا بذنب ولما يعفو الله أكثر**»[٣].

وعنه عليه السلام قال: «**قال أمير المؤمنين: ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة، وكم من شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً والموت فضح الدنيا ولم يترك لذي لب فرحاً**»[٤].

النوع الرابع: ذكر ما ورد من العقوبات على أحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد وذلك مما لا

(١) مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول: ج ٥، ص: ١.

(٢) الشورى: ٣٠.

(٣) الكافي: ج ٢، ص ٤٤٥ تحت رقم: ٦.

(٤) المصدر نفسه: ص٤٥١، تحت الرقم: ١.

يمكن حصره وذكره مع غير أهله وضع للدواء في غير موضعه، بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق يستدل أولا بالنبض والهيئة واللون ووجوه الحركات على العلل الباطنة ويشتغل بعلاجها فليستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات وليتعرّض لما وقف عليه اقتداءً برسول الله ﷺ، حيث قال له أحدهم: أوصني ولا تكثر عليّ فقال: «**لا تغضب**». وقال له آخر: أوصني فقال: «**عليك باليأس مما في أيدي الناس فإن ذلك هو الغنى، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر، وصل صلاة مودع وإياك وما يتعذر منه**»[1].

فكأنه ﷺ توسم بالسائل الأول الغضب فنهاه عنه، وفي السائل الآخر الطمع في الناس وطول الأمل، والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل.

فإذن على كل ناصح أن تكون غايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية ومعرفتها وتوسم الأحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهم، فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عنه تضييع للوقت والجهد.

---

(١) المحجة البيضاء: ج ٧، ص٩٧.

وهنا قد يسأل سائل: فإذا كان السائل لا تعلم حاله وما يعاني منه من علل؟

والجواب: هنا لابد للواعظ أن يعظه بما يشترك جميع الخلق بالحاجة إليه ولا يستغني عنه أحد، فإن في علوم الشرع أغذية وأدوية فالأغذية للجميع والأدوية لأرباب العلل، ومثاله ما قال لقمان لابنه: (يا بني زاحم العلماء بركبتيك ولا تجادلهم فيمقتوك، وخذ من الدنيا بلاغك وأنفق فضول كسبك لأخرتك، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا وعلى أعناق الرجال كلاًّ، وصم صوما يكسر شهوتك ولا تصم صوما يضر بصلاتك، فإن الصلاة أفضل من الصوم ولا تجالس السفيه ولا تخالط ذا الوجهين).

وقال لابنه أيضا: (يا بني لا تضحك من غير عجب ولا تمش في غير أرب[١]، ولا تسأل عما لا يعنيك ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت، يا بني إن من يَرحم يُرحم ومن يصمت يسلم، ومن يقل الخير يغنم، ومن يقل الشر يأثم، ومن لا يملك لسانه يندم)[٢].

وقال رجل لأحدهم: أوصني، فقال: كل ما لو جاءك الموت عليه

(١) الأرب – محركة –: الحاجة.

(٢) المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء: ج ٧، ص ٩٨.

فرأيته غنيمة فألزمه وكل ما جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه.

وقال موسى عليه السلام للخضر: (أوصني فقال: كن بساماً ولا تكن غضابا وكن نفاعاً ولا تكن ضراراً. وانزع عن اللجاجة، ولا تمش في غير حاجة، ولا تضحك من غير عجب، ولا تعير الخطائين بخطاياهم، وابك على خطيئتك يا ابن عمران)[١].

فهذه المواعظ مثل الأغذية التي يشترك الجميع في الانتفاع بها، فإذا كان طلب الطبيب أول علاج المرضى فطلب العلماء أول علاج العاصين، فهذا أحد أركان العلاج وأصوله.

الثاني: وهو الصبر وهو علاج الشهوة ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره وإنما يتناول ذلك إما لغفلته عن مضرته وإما لشدة غلبة شهوته، فله سببان.

فما ذكرناه هو علاج الغفلة فيبقى علاج الشهوة، وطريق علاجها حاصله: أن المريض إذا اشتدت ضراوة مرضه لمأكول مضر فطريقه أن يستشعر عظم ضرر أكله، ثم يغيب ذلك المأكول عن عينه فلا يحضره ولا يجعله قريباً منه فتتنازعه نفسه عليه أكثر، ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ويشبهه لكن ليس فيه ضرر أو ضرره بسيط، ثم يصبر بقوة

---

(١) المصدر نفسه.

الخوف على الألم الذي يناله في تركه فلابد على كل حال من مرارة الصبر، فكذلك يعالج الشهوة في المعاصي كالشاب مثلا إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقري المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والأئمة عليهم السلام، فإذا اشتد خوفه تباعد عن الأسباب المهيجة لشهوته. ومهيج الشهوة أمران:

الأول: هو حضور المشتهي والنظر إليه، وعلاجه الهرب والعزلة.

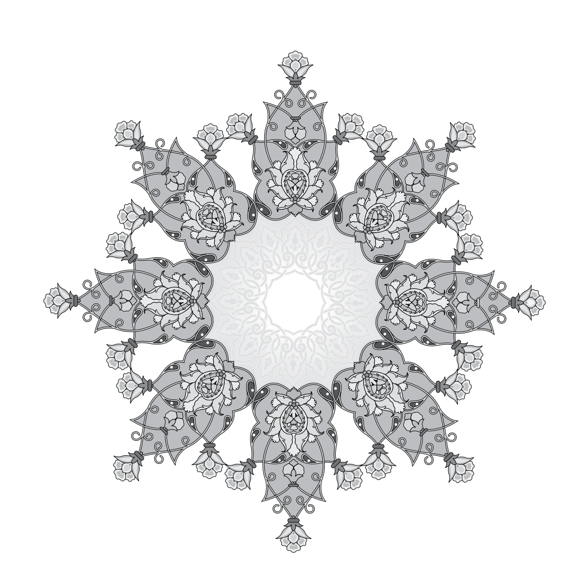
والثاني: تناول لذائذ الأطعمة وتحصيل جميع الشهوات؛ بأن يعتاد على تحصيل رغباته وكل ما يشتهيه، وعلاجه الجوع والصوم الدائم. وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ولا يصبر إلا عن خوف ولا يخاف إلا عن علم ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع وتقليد.

فأول الأمر حضور مجالس الذكر، ثم الاستماع عن قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع، ثم التفكر فيه لتمام الفهم وينبعث من تمامه لا محالة خوفه، وإذا قوي الخوف تيسّر بمعونته الصبر وانبعث الدواعي لطلب العلاج وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك.

فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء واستشعر الخوف واتقى وانتظر الثواب وصدق بالحسنى فسييسّره الله لليسرى، وأما من

بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسّره الله للعسرى، ثم لا يغني عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا، وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى وإنما لله الآخرة والأولى.

والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيدنا محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين.



المصادر والمراجع

-أوائل المقالات في المذاهب والمختارات، الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان ابن المعلم أبي عبد الله، العكبري، البغدادي (ت٤١٣هـ)، نشر المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، طبع دار المفيد للطباعة ونشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

-بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الشيخ محمد باقر المجلسي، نشر وطبع دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة المصححة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

-بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، الشيخ محمد تقي التستري (ت١٤١٥هـ)، تحقيق مؤسسة نهج البلاغة، نشر دار أمير كبير، مطبعة سبهر، طهران، إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

-تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليهم، الشيخ أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني (من أعلام القرن الرابع) تصحيح وتعليق الشيخ علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم المقدسة، إيران، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

-الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي،

مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة، إيران.

-الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي (ت١٤٠٢هـ)، نشر وطبع مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان.

-جامع الأخبار، الشيخ محمّد بن محمّد السبزواري، تحقيق علاء آل جعفر، نشر وطبع مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم المقدسة، إيران.

-الخصال، ابن بابوية، محمد بن علي القمي (الصدوق) (ت٣٨١هـ)، تصحيح الشيخ علي أكبر غفاري، نشر وطبع جامعة المدرسين، قم المقدسة، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

-شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، نشر وطبع دار الفكر، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة.

-الصحيفة السجادية، الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام (ت٩٤هـ)، تصحيح عبدالرحم أفشاري الزنجاني، نشر وطبع مؤسسة الفقيه، طهران، إيران، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.

-عيون الحكم والمواعظ، كافي الدين أبي الحسن علي بن محمد الليثي، نشر وطبع دار الحديث، قم المقدسة، إيران، الطبعة الأولى.

-الفصول المهمة في أصول الأئمة، الحر العاملي (ت١١٠٤هـ)، تحقيق وإشراف محمد بن محمد الحسين القائيني، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

-الكافي، الشيخ محمد بن يعقوب الكليني (ت٣٢٩هـ)، تصحيح الشيخ علي أكبر غفاري، والشيخ محمد آخوندي، نشر وطبع دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ.

-المجتنى من الدعاء المجتبى، السيد رضي الدين علي بن موسى بن طاوس (ت٦٦٤هـ)، تحقيق صفاء الدين البصري، نشر وطبع دار الذخائر، قم المقدسة، إيران، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

-المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء، محمد بن المرتضى المدعو بالمولى محسن الفيض الكاشاني (ت١٠٩١هـ)، تصحيح وتعليق الشيخ علي أكبر الغفاري، نشر وطبع مكتبة الصدوق، طهران، إيران، الطبعة الأولى، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٠م.

-مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، الشيخ محمّد باقر بن محمّد تقي المجلسي (ت١١١٠هـ)، نشر وطبع: دار الكتب الإسلامية، مطبعة مروي، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

-مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، الميرزا حسين بن محمد تقي

النوري الطبرسي، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

-النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (ت٦٠٦هـ)، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، نشر وطبع المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

-نهج البلاغة، خطب ورسائل وكلمات الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، جمع الشريف الرضي، تصحيح صبحي صالح، نشر وطبع مركز البحوث الإسلامية، قم المقدسة، إيران، طباعة أوفسيت بيروت، لبنان، ١٣٨٧هـ.

-وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي (ت١١٠٤هـ)، تصحيح وتحقيق وتذييل الشيخ عبدالرحيم الرباني الشيرازي، نشر وطبع دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

المحتويات

الفصل الثالث